1

المتخصصون

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

معركة العقول

المتخصصون

من بين كل رجال المخابرات المصرية ، يحتل وحده مكانة خاصة ...

مكانة صنعها أسلوبه الفريد ..

وكفاءته المتميزة ..

وعقليته النادرة ...

النادرة جداً ..

ولأنه شخص فريد بين أقرانه ، أسندت إليه قيادة فريق جديد ...

فريق من شباب المخابرات ، الذين تلقوا تدريبات خاصة ، واكتسبوا خبرات نادرة ، جعلتهم يستحقون ، تحت قيادته ،ذلك الاسم ، الذى أطلقه عليهم الجميع ...

المتخصصون .

* * *

د.نبيل فاروق

١ - المقاتل..

مرّت الدقائق بطيئة كالدهر، فى تلك الليلة، من ليالى نوفمبر ١٩٦٩م، وعلى الرغم من انخفاض درجات الحرارة، على نحو غير مسبوق، قبع اثنان من رجال المخابرات المصرية، داخل سيارة صغيرة، إيطالية الصنع، يتابعان فى اهتمام، ومن خلال عدسة مقرّبة، لآلة تصوير سينمائية، حواراً يدور بين رجلين آخرين، داخل مقهى مكيّف الهواء، فى منطقة (بيروجيا) الإيطالية..

كان الرجلان، الجالسان داخل المقهى، يتهامسان فى خفوت واضح، ولكن القابعين فى السيارة الصغيرة راحا يلتقطان فيلماً كاملاً لذلك الحوار الهامس، الذى لا يسمعان منه بالطبع حرفاً واحداً..

ومن حركة الأيدى، وانفعالات الوجوه، غمغم أحد الرجلين:

- من الواضح أنهما يتشاجران.

قال الآخر فى اهتمام :

- يبدو أن الشاب يتصرّف على نحو خاطئ، أغضب ضابط (الموساد) كثيراً، ياسيادة العقيد.

تمتم الأول فى حزم :

- دعه يدفعه للجنون؛ فهو يستحق هذا.

وصمت لحظة، أدار عينيه خلالها إلى سيارة أخرى كبيرة، تقف على مسافة أمتار قليلة من المقهى، قبل أن يقول فى لهجة آمرة:

- واصل التصوير، حتى أعود إليك.

سأله الآخر، وهو يواصل التصوير:

- هل تعتقد أن هذا الفيلم الصامت سيفيدنا، يا سيادة العقيد؟!

أجابه العقيد، وهو يغادر السيّارة بالفعل :

- خبراء قراءة حركات الشفاة لدينا، سيضيفون صوتا مسموعا إليه، عندما يترجمونه لنا فى (القاهرة).

ابتسم الأوّل، وهو يغمغم :

- بالتأكيد.

ابتعد العقيد بضع خطوات، فى ثبات وقوة، متجها نحو سيارة الجاسوس الشاب، الذى انهمك فى الحديث مع ضابط (الموساد)، داخل المقهى، ثم لم يلبث أن توقّف لحظة، التقط خلالها زجاجة خمر فارغة، من جيب معطفه، ورفعها كمن يهم بالشرب منها، قبل أن يتبدّل حاله بغتة، على نحو مدهش، وهو يواصل سيره، مترنحا كالمخمور، ومطلقا عقيرته بأغنية إيطالية شعبية شهيرة، ارتبطت دوما بألسنة المخمورين، فى منطقة (بيروجيا) السياحية..

وداخل السيارة الصغيرة، رفع الآخر عينه لحظة، عن عدسة آلة التصوير؛ ليتطلّع إلى العقيد، الذى بدا أشبه بالمخمورين بالفعل، وهو يقترب من السيارة الكبيرة أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وبابتسامة كبيرة، أعاد الآخر عينه إلى عدسة التصوير، مغمغما :

- بالبراعة سيادة العقيد.

وبينما يواصل تصوير تلك المحادثة الغاضبة، بين الجاسوس وضابط (الموساد) الإسرائيلى، كان العقيد قد بلغ سيارة الأوّل، وارتكن إليها، وهو يواصل الغناء، بصوت أكثر ارتفاعا، ويلوّح بذراعيه، فى حركة مسرحية مفتعلة، مترنّحا بشدة، حتى سقطت الزجاجة من يده أرضا، فانحنى لالتقاطها، وبدا وكأنه يبحث عنها فى استماتة، وهو يستند إلى جسم السيارة، وينادى زجاجته، كما لو أنها أقرب أصدقائه..

وفى مهارة فائقة، وبراعة منقطعة النظير، وعلى الرغم من حركة السيارات، التى تصل إلى المقهى أو تغادره، تحرّكت أصابع العقيد، لتلصق جهاز تتبع دقيق، أسفل الرفرف الخلفى لسيارة الجاسوس، قبل أن يرتفع صوته، قائلاً بأسلوب مخمور إيطالى :

- آه.. ها أنتذا يا عزيزتى.

ونهض حاملاً الزجاجة، التى احتضنها فى لهفة، وعاد يطلق عقيرته بالغناء، وهو يسير بمحاذاة المقهى، حتى اختفى عن الأنظار..

وداخل السيارة الصغيرة، غمغم الآخر :

- ياللبراعة!

لم يحاول أن يسأل نفسه، أين ذهب العقيد، وهو يواصل التصوير والمتابعة، بمنتهى الصبر والدقة، و...

"ماذا تفعل هنا بالضبط؟!.."..

انبعث الصوت فجأة، على قيد خطوة واحدة من السيّارة، فاستدار الرجل إلى مصدره بحركة حادة، وهو يخفض عدسة آلة التصوير، ولكن بصره ارتطم بفوهة مسدس قاسية، موجّهة إلى رأسه مباشرة وصاحب الصوت يقول من خلفها، فى صرامة قاسية :

- تحرّك فى بطء وهدوء، وغادر السيارة مع آلة التصوير، وعدساتها موجّهة إلى أسفل، وحذار أن تبدر منك حركة واحدة مفاجئة، فلا يوجد سبب واحد، يمنعنى من إطلاق النار عليك، ونسف رأسك بلا تردّد.

غادر رجل المخابرات المصرى السيّارة فى حذر، وهو يقول، محاولاً تهدئة الموقف، وعيناه تتابعان حامل المسدس فى دقة:

- اهدأ يا رجل.. الأمر لا يستحق هذا.. أنا مجرّد صحفى بسيط، أحاول الحصول على أخبار ولقطات مثيرة، لصحيفة محلية صغيرة.

تراجع حامل المسدّس فى حرفية؛ ليحافظ على مسافة آمنة، بينه وبين رجل المخابرات المصرى، وهو يقول فى صرامة:

- مصورو الصحف يحملون عادة آلات تصوير ثابتة، وليس آلات سينمائية.

هزّ رجل المخابرات المصرى كتفيه، وهو يدرس خصمه فى حذر، قائلاً:

- إنه أسلوب جديد يارجل؛ فنحن نلتقط الصور، من خلال آلة تصوير سينمائية، تمنحنا أربع وعشرين لقطة، فى الثانية الواحدة، حتى يمكننا اختيار أفضلها، و...

قاطعه حامل المسدّس، فى صرامة شرسة :

- لا تحاول خداعى.

أجابه رجل المخابرات فى سرعة :

- ومن قال إننى أفعل؟!

انعقد حاجبا حامل المسدس فى شدة، وهو يجذب إبرته فى تحفز، فى نفس الوقت الذى التقط فيه جهاز اتصال لاسلكى من جيبه، وهو يقول بلهجة قاسية :

- التحايل لن ينفعك يا هذا.. أريد آلة التصوير السينمائية فوراً، أما بالنسبة لك، فلست أنا من سيقرّر مصيرك، وإنما..

وقبل أن يتمّ عبارته، انقضّ عليه العقيد فجأة، من شارع جانبى، دون أن ينطق بحرف واحد، وباغته بركلة قوية، أطاحت بالمسدس من يده، قبل أن يهوى على فكه بلكمة قوية، القته أرضا فى عنف، فطار جهاز الاتصال اللاسلكى من يده..

وكان من الواضح أن الرجل محترف بحق؛ فعلى الرغم من المباغتة، ومن عنف اللكمة، استعاد توازنه بسرعة، وهب واقفا على قدميه، وهو يزمجر هاتفا، بلغة عبرية صريحة :

- آه.. هذا يحسم الأمر.. أنتما من رجال المخابرات المصرية.

لم تكن عبارته العبرية قد اكتملت بعد، عندما وثب العقيد نحوه، فى مرونة مدهشة، ليركله مرة أخرى فى صدره، ويدفعه ثلاثة أمتار إلى الخلف، قبل أن يسقط إلى جوار جهاز الاتصال اللاسلكى، فى نفس اللحظة، التى ألقى فيها رجل المخابرات المصرى الآخر، آلة التصوير السينمائية داخل السيارة، وهو يهتف:

- الأفضل أن ننصرف من هنا بسرعة.

نطقها بالعربية هذه المرة، وكأنما لم يعد يجد مبررًا للتظاهر، فهتف العبرى، وهو يختطف جهاز اللاسلكى فى شراسة:

- لن تنجح لعبتكما أيها المصريين.

كان يهم بضغط زر الاتصال، فى جهاز اللاسلكى، عندما سحب العقيد

مسدسه، قائلاً فى صرامة:

- إياك حتى أن تحاول.

زمجر الرجل، وهو يقول بالعبرية فى توتر:

- وماذا ستفعل أيها المصرى؟!.. هل ستطلق النار علىّ، فى وسط الطريق؟!

قال العقيد فى صرامة :

- وهل تتصوّر أننى سأتردّد لحظة فى هذا؟!

وقال رجل المخابرات الآخر فى سخرية :

- ثم أن الطريق خال، فى هذه الساعة المتأخّرة.

قال الرجل فى حدة، وهو ينهض فى حذر متوتّر :

- القتل العشوائى ليس من شيمتكم، يا رجال المخابرات المصرية.

جذب العقيد إبرة مسدسه، وهو يقول فى حزم :

- لو وضعت حياتك فى كفة، وأمن ومستقبل (مصر) فى الكفة الأخرى، فأيهما تختار، لو أنك مصرى مثلى؟!

نقل الرجل بصره بينهما، فى عصبية بلا حدود، قبل أن يخفض يده، مجيبا فى شراسة قاسية:

- أختار هذه.

مع حركته، انزلقت قنبلة يدوية صغيرة، من كم معطفه إلى كفه، والتقطتها أصابعه فى مهارة، ليرفعها أمامهما، ويمسك زنادها بسبّابته، مواصلاً:

- فلو انطلقت رصاصة واحدة منكما، ستصبح نهاية ثلاثتنا.

انعقد حاجبا رجل المخابرات الأصغر، فى توتر بالغ، فى حين قال العقيد بنفس الصرامة، دون أن تهتز فى جسده شعرة واحدة:

- الانتحار فى سبيل الوطن ليس من شيمتكم أيها الإسرائيلى.

قال الإسرائيلى فى شراسة :

- إنكما لم تتركا لى خياراً آخر.

ثم اقتربت سبّابته الأخرى من زر الاتصال، فى جهاز اللاسلكى، وهو يواصل، وقد تسللت نبرة ظافرة متعالية إلى صوته:

- إنها لعبة توازن القوى.. أليس كذلك؟!

التقى حاجبا العقيد فى شدة، وأطلّت من عينيه نظرة صارمة قوية، وهو يدير الأمر كله فى رأسه بسرعة البرق..

من المستحيل أن تفشل العملية الآن..

أو على هذا النحو..

لقد تتبّعت المخابرات المصرية هذا الجاسوس طويلاً، وانتقلت خلفه إلى (أوروبا)، بعد أن أصبح بؤرة خطر، تهدّد الشباب المصرى، الذى يغادر البلاد، بحثاً عن فرصة عمل خارج الحدود..

والآن اقتربت العملية من نهايتها..

وأصبح لديهم دليل إدانة قوى، يكفى لمحاكمة ذلك الجاسوس الشاب، عند إعادته إلى (القاهرة)..

ولا يمكنه أن يسمح بفشل العملية، فى هذه المرحلة الأخيرة..

لا يمكنه أبداً..

ومهما كان الثمن..

فبالنسبة إليه، كان هناك شعار واحد، لا يقبل المساومة أو الجدل، يسيطر على مشاعره كلها..

وحتى النخاع..

مصر أولاً..

وقبل كل شئ..

لذا، فبلا تردد، وبحزم صارم قوى، ضغط العقيد زناد مسدسه الخاص، المزوّد بكاتم للصوت، وهو يقول:

- كلا.. ليس كذلك!

اخترقت رصاصته جبهة الإسرائيلى، فى منتصفها تماماً، بدقة تثفّ عن مهارته واحترافه، فجحظت عينا الرجل عن آخرهما، وحملتا تعبيراً عجيباً، يجمع ما بين التوتر والدهشة والرعب وعدم التصديق، قبل أن تتخاذل ساقاه تحته، ويهوى جثة هامدة، على جانب الطريق..

وازداد انعقاد حاجبى العقيد بشدة، عندما شاهد تلك القنبلة اليدوية تنفلت من بين أصابع الاسرائيلى، وتتدحرج نحو زميله الأصغر سناً، فى حين بقى زنادها معلقاً من حلقته، فى سبّابة الإسرائيلى الصريع..

وفى مبادرة سريعة مدهشة، ودون حتى أن يدرس الأمر ، أو يناقش عواقبه مع نفسه، وثب العقيد نحو زميله الأصغر، صائحاً:

- احترس.

وأحاط جسد زميله بجسده، و...

ودوى الانفجار..

* * *

كل شئ بدا مرتبكاً ومضطرباً فى رأسه..

كل شئ على الإطلاق..

كان يتحرّك، على أرض ممهدة، نصف غائب عن الوعى، وجسده يرقد على فراش مطاطى، يدفعه بعضهم فى سرعة، وهناك أصوات عديدة تتردّد من حوله، باللغة الإيطالية، التى يجيدها كأبنائها..

"بسرعة.. نحتاج إلى لتر ونصف اللتر من الدم.. من فصيلة (و) سالبة.."..

"استدع الدكتور (ماريو) فوراً.."..

"أخشى على عموده الفقرى، فإصابة ظهره فادحة.."..

"سيحتاج وجهه أيضاً إلى جراحة تجميل.."..

"فيما بعد.. فيما بعد.. حياته أولاً.."..

"افعلوا كل ما يلزم بالله عليكم.. سندفع كافة التكاليف دون مناقشة.."..

ثم راحت الأصوات تخفت، وتخفت..

ومع خفوتها، اضطرب ذهنه أكثر..
وأكثر..
وأكثر..

ثم شعر بقناع يوضع على وجهه..
وبرائحة عجيبة تتسلل إلى أنفه..

وتلاشى وعيه مرة ثانية..
تماماً..

* * *

"إنها كارثة.."..

نطق مدير المخابرات بالكلمة فى أسف، وهو يمط شفتيه، ويهزّ رأسه حزنا، قبل أن يتابع :

- إنه واحد من أفضل رجالنا على الإطلاق، ولقد أدار عددا من أنجح عملياتنا، خلال السنوات العشر الماضية، ومن المؤسف أن يصيبه هذا ، فى مرحلة بالغة الدقة، كالتى يمر بها وطننا الآن .

قال مسئول قسم الشئون الإسرائيلية، فى أسف مماثل:

- لست أدرى كيف سيمكننا تعويضه.

تراجع المدير فى مقعده، قائلاً :

- إنه لم يمت بعد.

أشار مسئول الشئون الإسرائيلية بيده، وهو يقول :

- إنه ما زال يتنفس، حسبما يحلو له أن يصف نفسه، وهو يجلس على مقعده المتحرك، فى حديقة فيلته الصغيرة، التى لا يفارقها قط.

تساءل المدير فى اهتمام :

- وماذا عن حالته المعنوية ؟!

صمت مسئول الشئون الإسرائيلية بضع لحظات، قبل أن يجيب :

- أنت تعرفه مثلى يا سيّدى.. حازم، صارم، قوى الإرادة، ولا تشف ملامحه قط، عما يعتمل فى أعماقه.

وصمت لحظة أخرى، قبل أن يضيف :

- يكفى أنه لم يتوقف يوما واحدا عن متابعة جلسات العلاج الطبيعى، على الرغم من اتفاق الأطباء على أن إصابة عموده الفقرى لن تتيح له العودة للوقوف على قدميه أبدا.. على الأقل بالنسبة لما بلغه الطب، حتى هذه اللحظة.

أومأ المدير برأسه متفهما، وبدت عليه علامات التفكير العميق، لفترة قاربت الدقائق الخمس، دون أن يحاول مسئول الشئون الإسرائيلية مقاطعة صمته وتفكيره بحرف واحد، حتى رفع المدير عينيه إليه، متسائلاً، فى اهتمام بالغ:

- وماذا عن الشطرنج ؟!

بدا السؤال عجيبا، بالنسبة لمسئول الشئون الإسرائيلية، حتى أنه تساءل فى حذر :

- أى شطرنج ؟!

اعتدل المدير، وهو يسأله بنفس الاهتمام :

- أما زال يمارس لعبة الشطرنج، بنفس حماسه السابق ؟!

تردّد مسئول الشئون الإسرائيلية لحظة، وكأنما لم يستوعب الأمر جيّدا، ثم لم يلبث أن أجابه فى حذر، لم يجد هو نفسه سببا منطقيا له:

- بالطبع.. إنه لا يستقبل الكثير من الزوّار، الذين يعشقون اللعبة مثله،

ولكنه يمارسها طوال الوقت، حتى ولو اضطر إلى لعب الدورين معاً..

ارتسمت ابتسامة غامضة، على شفتى المدير، وهو يقول :

- عظيم.

ثم امتلأ صوته بالحماس، مع استطرادته الحازمة :

- فى هذه الحالة، أريدك أن تقوم بزيارته اليوم؛ لتحمل إليه رسالة خاصة.

واستعاد ابتسامته، وهو يضيف :

- خاصة جداً.

لحظتها بدا كل شئ عجيباً غامضاً..

للغاية..

* * *

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى العقيد، وهو يستقبل مسئول الشئون الإسرائيلية، فى حديقة فيلته الصغيرة، قائلاً:

- مرحبا بك فى منزلى المتواضع يا سيادة اللواء.. كنت أتمنى النهوض لاستقبالك، والترحيب بزيارتك كما ينبغى، ولكن هناك مقعد سخيف، بإطارين كبيرين، يمنعنى من القيام بهذا الواجب.

قال مسئول الشئون الإسرائيلية، وهو يجلس على المقعد المواجه له،

عبر مائدة الحديقة البسيطة:

- لا شئ يمكن أن يمنعك من القيام بواجبك، أو خدمة وطنك أيها العميد.

أشار العقيد بسبّابته، قائلاً :

- العقيد يا سيادة اللواء.. إصابتى لن تختصر عامين من زمن ترقيتى الطبيعية، إلى الرتبة التالية.

ابتسم اللواء، وهو يقول :

- ولكنها فعلت بالفعل يا رجل.

ثم مال نحوه قليلاً، مضيفاً :

- لقد أصدر الرئيس (جمال عبد الناصر) شخصياً قراراً، بمنحك ترقية استثنائية لرتبة العميد، تقديراً لجهودك، وتفانيك من أجل الوطن.

وعلى الرغم من شهرته الواسعة، فى السيطرة على ملامحه وانفعالاته، بدا التأثر واضحاً على وجه الرجل، قبل أن يقول:

- وكيف يمكننى أن أشكر سيادة الرئيس، على منحة التقاعد الكريمة هذه ؟!

تراجع اللواء، وهو يقول مبتسماً :

- ومن تحدّث عن التقاعد يا رجل؟!.. إنها ترقية استثنائية فحسب.

أطلّ التساؤل من عينى الرجل، فتابع اللواء فى حسم :

- رسمياً أنت ما زلت فى خدمة جهاز المخابرات العامة.

تنهَّد الرجل فى توتر، وأمسكت أصابعه إطار مقعده المتحرك، وهو يقول فى حزم :

- سيادة اللواء.. ربما يتعاطف الكل فى الإدارة مع إصاباتى، التى ساهمت على نحو أو آخر، فى نجاح عملية إسقاط جاسوس (روما)، إلا أن هذا لا يعنى منحى عملاً إداريا أو كتابيا، لمجرّد أننى..

قاطعه اللواء، وكأنه لم يسمعه :

- هل وصلتك أية أخبار، عن ذلك القسم الجديد، الذى أنشأناه مؤخراً.

أدرك الرجل على الفور، أن اللواء يتفادى الحديث عن الأمر، فالتقط نفسا عميقا، قبل أن يجاريه، قائلاً :

- هل تقصد ذلك القسم ، الذى يضم مجموعة الشبان المتخصصين، فى مختلف المجالات؟!

أومأ اللواء برأسه، وهو يقول :

- بالضبط.. لقد ضممنا إليه مجموعة منتقاة بعناية من الشباب، الذين تلقوا تدريبات مكثفة، حول عدد من التخصصات الدقيقة، التى يحتاج إليها عملنا، وكلهم يجيدون العبرية، والإنجليزية، والفرنسية، وملامحهم تصلح

للتعامل فى المجتمعات الشرقية والغربية معا.

صمت الرجل فى مقعده بعض الوقت، وهو يحاول أن يستشف ما يرمى إليه مسئول الشئون الإسرائيلية بالضبط، قبل أن يتساءل فى حذر:

- وهل حدثت أية تعديلات، فى ذلك القسم الخاص؟!

أشار اللواء بيده، قائلاً :

- تعديل جوهرى للغاية.

ثم مال نحوه، مستطردا فى حزم :

- إنه يحتاج إلى قائد.

ردَّد الرجل، فى حذر أكثر :

- قائد ؟!

عاد اللواء يعتدل، وأشار بيده مرة أخرى، قائلاً فى حزم :

- بالطبع.. إنه يحتاج إلى قائد.. إلى مقاتل قوى، يستطيع السيطرة على حماس واندفاع الشباب، وتوجيه نيرانهم وطاقاتهم، ويرتب ويدير كل العمليات، التى سيقومون بها، فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا، والتى نسعى خلالها للثأر من العدو الإسرائيلى، واستعادة أرضنا المحتلة فى (سيناء).

انعقد حاجبا الرجل، وهو يقول فى توتر :

- إنها مهمة خطيرة يا سيادة اللواء، وتحتاج الى قائد قوى، يقتنع به فريق الشباب، ويعمل تحت قيادته، وينفذ تعليماته فى ثقة ووعى ، ويقوم بعملياته فى إقدام وإصرار، حتى ولو كان الثمن هو حياتهم نفسها.

ابتسم اللواء، قائلاً :

- ولقد اتفقت الآراء، على أنه لا يوجد سوى شخص واحد، يصلح للقيام بهذا الدور أيها العميد.

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف:

- أنت.

ازداد انعقاد حاجبى الرجل، وهو يقول فى توتر شديد :

- سيادة اللواء.. أنت تتحدث عن فريق من الشباب المتخصصين، الذين يموجون بالحيوية والنشاط، وجسدى كما ترى لم يعد...

قاطعه اللواء فى حزم :

- ومن تحدث عن جسدك ؟!

ثم عاد يميل نحوه، ويشير بسبابته إلى رأس الرجل، مستطرداً ، فى حزم أكثر:

- إننا نريد هذا..

وكانت مفاجأة..

وبداية.

* * *

٢ - المهمة الأولي..

(تل أبيب)... صيف ١٩٧٠م..

السادسة والنصف صباحاً..

أشرقت الشمس أو كادت، فى ذلك الصباح، على ذلك الحى الراقى، فى الميناء الإسرائيلى الأشهر، وظهرت حركة محدودة فى شوارعه، لعدد لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة، من باعة الصحف، وموزعى الألبان، وسائق سيارة واحد، انهمك فى تنظيف سيارته، وإعدادها لرحلة طويلة، حسب أوامر سيده المسبقة..

والدقائق طويلة، ظلّ الحى هادئاً ساكناً كعادته، مثل معظم الأحياء الراقية، فى كل أنحاء العالم، و...

وفجأة، ظهرت تلك السيارات العسكرية..

ثلاث سيارات كبيرة، مكتظة بالجنود، اخترقت الحى من محاوره الثلاثة، وأحاطت بمنزل من ثلاثة طوابق، فى منتصفه تقريباً، قبل أن تقفز منها ثلاث فرق من الجنود، المدججين بالسلاح، حاصروا المبنى بأسلوب يشف عن تدريب وتنسيق مسبق، وما أن استقروا فى أماكنهم، حتى ظهرت سيارة (جيب)، عبرت الحى بسرعة متوسطة نسبياً، وتوقفت عند الجنود، ليغادرها رجل المخابرات الإسرائيلى (حونين)، الذى تألقت عيناه ببرق

خاص، ينم عن مزيج من الذكاء الجم، والقسوة بلا حدود، وشد قامته فى اعتداء، وهو يدير عينيه الزرقاويين فى وجوه الجنود، قبل أن يقول، فى لهجة صارمة، آمرة، قاسية:

- أريده حيا.

وقبل حتى أن تكتمل عبارته، انطلق الجنود..

أحاطت فرقة منهم بالمبنى، إحاطة السوار بالمعصم، وانتشرت الفرقة الثانية فى المبانى المجاورة، فى حين اقتحمت الفرقة الثالثة المكان، فى عنف شديد، وكأنما لم يعد هناك مبرر للحيطة والحذر، وتعالت وقع أقدام الجنود الثقيلة، على درجات السلم، وهم يقفزون عبرها، لبلوغ الطابق الثالث والأخير من المبنى..

ومع وقع الأقدام الثقيل، هبّ ساكن الطابق الثالث من فراشه، وخفق قلبه فى عنف، وهو يهتف:

- رباه!.. ترى هل....

لم يحاول حتى إتمام سؤاله، وهو يقفز من فراشه، فى نشاط جم، صنعه ذلك الانفعال الجارف، الذى سرى فى عروقه..

بل وفى كيانه كله..

كان قد استعد، على نحو أو آخر، لمواجهة مثل هذا الموقف، الذى لم يخش شيئاً بقدر ما خشاه، طوال السنوات الثلاث الماضية، وإن تم تدريبه

على مواجهته ، فى أوقات مختلفة ...

وفى اماكن مختلفة أيضا..

وبسرعة، وعلى الرغم من التوتر الشديد، الذى يسرى فى عروقه أزاح خزانة أوراقه، والتقط من خلفها جهاز اتصال لاسلكى صغير الحجم، وانتزع الهوائى الخاص به، ثم حلّ أحد أجزاءه فى مهارة وإتقان، وأسرع به إلى دورة المياه، وألقاه فى المرحاض، ثم اختطف زجاجة عطر ما بعد الحلاقة، من الرف المجاور، وأفرغها فى المرحاض أيضا، قبل يطلق فيض المياه، ثم يغسل الزجاجة من الداخل بمياه الصنبور، ويلقيها فى سلة المهملات..

وفى نفس اللحظة، التى بلغ فيها الجنود باب شقته، كان هو يبلغ مكتبته، ويلتقط منها كتاباً بعينه، ثم يلقيه فى سلة قمامة معدنية، مع مجموعة من الأوراق وأفلام التصوير، ويسكب فوقها كلها محتويات زجاجة خاصة، تبدو من الخارج أشبه بزجاجات الحبر العادية..

وفى اللحظة التى اقتحم فيها الجنود المكان! أشعل هو النار فى كل هذا..

ومن الواضح أن السائل، الذى كانت تحويه زجاجة الحبر الزائفة، هو سائل من نوع خاص للغاية، إذ لم يكد لسان اللهب يمسه، حتى اشتعل بقوة غير طبيعية، وراح يلتهم محتويات سلة القمامة المعدنية، فى سرعة مدهشة، حتى أن فريق الجنود، الذى انطلق مسعوراً، يحاول السيطرة على ما يحدث، وإيقاف النيران المشتعلة، لم يمكنه احتواء الموقف، إلا بعد أن حوت سلة القمامة المعدنية كومة فى الرماد المختلط فحسب..

وبكل الغضب، ارتفعت فوهات المدافع الآلية نحو صاحب المكان، الذى تجمَّد فى مكانه، وتصوَّر أنه سيتحوَّل حتما، خلال ثوان معدودات، إلى مصفاة عقيمة، من كثرة ما سيصيبه من رصاصات، و...

"قلت: إننى أريده حيا..".

هتف رجل المخابرات الإسرائيلى (حونين) بالعبارة، فى صرامة قاسية، ليحد من جموح وغضب الرجال، قبل أن يتقدَّم إلى المكان فى هدوء، متطلِّعا إلى عينى صاحبه مباشرة، وهو يتابع:

- (دافيد شولومون).. أليس كذلك؟!

ازدرد الرجل لعابه فى صعوبة، مجيبا :

- بلى.. هو أنا.

واصل (حونين) اقترابه ، حتى صار على قيد نصف المتر منه فحسب، ثم مال نحوه حتى أصبحت أنفاسه الكريهة واضحة، قبل أن يقول فى قسوة:

- أأنت واثق من أن هذا هو اسمك الحقيقى؟!

ازدرد الرجل لعابه مرة أخرى، وقال:

- أوراقى كلها سليمة، وتؤكِّد أن...

قاطعه (حونين)، فى صرامة مخيفة، مكرِّرا :

- أأنت واثق من هذا ؟!

أدرك الرجل عندئذ، أن الأمور قد تجاوزت حدَّها، فلاذ بالصمت تماما، وهو يتطلَّع إلى عينى (حونين)، الذى اعتدل، وارتسمت على شفتيه ابتسامة مقيتة، قائلاً:

- هذا ما كنت أتوقعه.

لم يكد يتم عبارته، حتى برز أحد الجنود المصاحبين له، وهو يقول فى توتر واضح ملحوظ:

- لقد تخلَّص من كل شئ يا سيِّدى.

انعقد حاجبا (حونين)، فى غضب هادر، وهو يسأل الجندى، دون أن يُبعد عينيه عن وجه الرجل:

- كل شئ؟!

أجابه الجندى فى ضيق :

- نعم يا أدون (حونين).. كل شئ.. جهاز اللاسلكى، والحبر السرى، وكتاب الشفرة، وكل الوثائق والميكروفيلم.. كل شئ.

استعاد الرجل شيئا من ثقته وتماسكه، مع إدراكه أنه قد تخلَّص بالفعل من كل ما يمكن أن يدينه ماديا، وتساءل:

- بم تتهمنى بالضبط يا أدون (حونين)؟!

احتقن وجه (حونين) بشدة، وقست ملامحه على نحو عنيف، قبل أن

تهوى قبضته فجأة على وجه الرجل، بلكمة كالقنبلة، هاتفا:

- بهذا.

كانت اللكمة من العنف، حتى أنها اقتلعت الرجل من مكانه، ودفعته مترين كاملين إلى الخلف، ليسقط بين ذراعى جندى إسرائيلى، فى نفس اللحظة التى صاح فيها (حونين) فى قسوة:

- احملوه إلى مقرنا.. سأعرف كيف أنتزع المعلومات من بين شفتيه هناك.

انقضّ جنديان آخران على الرجل، وانتزعاه من مكانه فى عنف؛ ليحملاه إلى واحدة من السيارات العسكرية، التى ما زالت تحيط بالبناية، فى حين صاح (حونين)، بكل الحزم والصرامة:

- أعيدوا تفتيش المكان كله بمنتهى الدقة.. اقلبوه رأسا على عقب، وانتزعوا الأرضيات وورق الحائط، بل والجدران نفسها، لو اقتضى الأمر.. المهم أننى أريد أدلة دامغة.. أية أدلة.

فى نفس اللحظة، التى أطلق فيها صيحته، كان جنوده يلقون أسيرهم داخل السيّارة العسكرية، تحت أنظار الجيران، الذين استيقظوا على الضجة الحادثة، وأطلوا بوجوههم، من نوافذهم وشرفاتهم، فى محاولة لمتابعة ما يحدث..

ومن بين هؤلاء الجيران، انسحب رجل هادئ الملامح، عائداً إلى حجرة

مكتبه، وقاوم بشدة تلك الارتجافة، التى سرت فى جسده، وهو ينحنى، ليدس مفتاحاً صغيراً، فى ثقب خفى، فى قاعدة تمثال كبير أنيق فى الركن، ثم يفتح فجوة سرية فيه، ويخرج منها جهاز اتصال لاسلكى، حمله إلى سطح مكتبه، وهو يلهث فى انفعال، وكأنما يحمل أطنانا..

وبأصابع مرتجفة، وضع مسماع الجهاز على أذنيه، والتقط كتاباً من مكتبته، يحوى مفتاح شفرة اتصال خاصة، وراح يبث رسالة قصيرة، تحمل معلومة بالغة الأهمية والخطورة..

يبثّها إلى الجانب الآخر من قناة (السويس)..

إلى (القاهرة)..

مباشرة..

* * *

"رجلنا رقم واحد، سقط فى قبضة المخابرات الإسرائيلية فى (تل أبيب).."

تطلق اللواء العبارة، فى اهتمام مشوب بالقلق، وهو يجلس أمام العميد، فى حديقة فيلا هذا الأخير، الذى تراجع فى مقعده المتحرك فى بطء، وراح يداعب ذقنه فى صمت لبعض الوقت، قبل أن يدير عينيه إلى رقعة الشطرنج، التى تستقر على منضدة الحديقة البسيطة، ويراقب القطع المتناثرة فوقها لحظة، ثم يسأل فى هدوء، يشفّ عن تفكير عميق:

- وهل تعتقد أنهم قد انتزعوا منه ما يريدون؟!

هزّ اللواء كتفيه، قائلاً :

- أنت تعرف وسائل الإسرائيليين البشعة.

مدّ العميد أصابعه فى هدوء، ونقل واحدة من قطع الشطرنج البيضاء، قبل أن يقول فى اقتضاب:

- أعرفها بالطبع.

ثم أعاد عينيه إلى اللواء، مستطرداً :

- وأعرف وسائلنا أيضاً.

ارتسمت ابتسامة باهتة، على شفتى اللواء، وهو يقول:

- (وليد) سيحتمل التعذيب ليوم أو يزيد، ثم سيخبرهم بالقصة الاحتياطية أولاً.

سأله العميد، وعيناه ما زالتا تجوبان رقعة الشطرنج :

- وكم يحتاجون، للتحقق من صحتها ؟!

أشار اللواء بيده، قائلاً :

- الخبراء يقولون : مابين ثلاثة إلى أربعة أيام.

قال العميد فى هدوء وتركيز :

- وعندئذ سيدركون أنها خطة زائفة، وسيعودون إلى (وليد)، أكثر عنفاً، وغضباً، وشراسة.

تنهّد اللواء، قائلاً :

- ولن يمكنه احتمال وسائلهم القذرة عندئذ، مما سيدفعه حتماً إلى الاعتراف بالقصة الحقيقة.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف فى حزم :

- خاصة وأنه مدنى .

غمغم العميد، فى تركيز شديد :

- بالتأكيد.

كان من الواضح أنه يدير الأمر كله فى رأسه، بمنتهى التركيز والتدقيق، وعلى الرغم من هذا، فقد تابع اللواء فى حزم:

- ولو اعترف (وليد) بقصته الحقيقية، سيكشف الإسرائيليون الشبكة كلها، وسيعنى هذا أن نفقد عدة مصادر هامة جداً للمعلومات، فى هذه الفترة الحرجة الدقيقة.

تمتم العميد، وتركيزه الذهنى يتزايد :

- هذا صحيح.

نهض اللواء عند هذه النقطة، وألقى ملفاً صغيراً إلى جوار رقعه

الشطرنج، وهو يقول فى حزم صارم:

- لا ينبغى أن يعرف الإسرائيليون الحقيقة أيها العميد.. أبداً.. ومهما كان الثمن.

أومأ العميد برأسه، وهو يقول فى هدوء عجيب :

- لن يحدث هذا بإذن الله يا سيدى.

التقط اللواء نفسا عميقا، وقال فى حزم :

- أتعشم هذا أيها العميد.. أتعشم هذا.

قالها، واستدار مغادراً حديقة الفيلا الصغيرة، دون أن يضيف حرفا واحداً، وتابعه العميد ببصره، فى صمت وهدوء، حتى اختفى تماما، فانحنى هو يلتقط ذلك الملف، من جوار رقعة الشطرنج، وتراجع فى مقعده فى استرخاء ؛ ليطالعه باهتمام وتركيز..

بل بمنتهى الاهتمام والتركيز..

ولقد استغرقت مطالعته للملف فترة طويلة، تجاوزت الساعة الكاملة، وهو يدرس كل الوقائع، والأحداث، والتفاصيل، قبل أن يتوقف لبعض الوقت، عند صفحة المعلومات، الخاصة بضابط المخابرات الإسرائيلى (حونين)، ثم يغمغم، وشفتاه تحملان ابتسامة باهتة :

- إنها مباراة جديدة بيننا إذن، يا (حونين).

وفى هدوء شديد، وعلى نحو يوحى بأنه يعيد ترتيب أفكاره، أنهى العميد مباراة الشطرنج الفردية، التى يدير جانبيها منذ الصباح، ثم راح يعيد القطع إلى مواقعها الأساسية على الرقعة، قبل أن يتطلع إليها لربع الساعة أو يزيد، فى صمت وسكون مطبقين، كما لو أنه قد تحول إلى تمثال من الشمع، فى نفس الوقت الذى راح فيه عقله الفذ يعمل..

ويعمل..

ويعمل..

ثم اعتدل فى مجلسه فجأة، وأطلت من عينيه نظرة، تشف عن منتهى اليقظة والحيوية، وهو يلتقط سماعة الهاتف، الذى لا يفارق منضدة الحديقة قط، وطلب رقما خاصا، وانتظر حتى سمع صوت محدثه، ثم قال فى حزم:

- هنا رقم (واحد)... أريد عقد اجتماع مع رقم (أربعة)، ورقم (سبعة)، ورقم (عشرة).. خلال ساعة واحدة من الآن... نعم.. الأمر عاجل.. عاجل جدا.

ثم أنهى المحادثة، وعاد يُطالع رقعة الشطرنج..

بمنتهى الاهتمام..

والدقة..

والتركيز..

* * *

عقد مدير المخابرات الإسرائيلية حاجبيه الكثين فى شدة، وهو يطالع ذلك التقرير، الذى قدّمه له ضابطه (حونين)، والذى احتاج منه إلى دقائق خمس، من الصمت والمتابعة، قبل أن يرفع عينيه إلى هذا الأخير، متسائلاً بصوته الأجش الغليظ:

- وهل تعتقد أن قصة ذلك الجاسوس المصرى صحيحة يا (حونين)؟!

أشار (حونين) بيده، مجيبا :

- لقد تعرَّض لتعذيب شديد يا سيِّدى، قبل أن يمنحنا هذه القصة، وهى تبدو لى مترابطة ومنطقية إلى حد كبير.

تساءل المدير فى اقتضاب :

- إذن ؟!

هزَّ (حونين) رأسه، مكملاً :

- لا يمكننا أبداً أن نثق فى أوّل قصة، يدلى بها الجاسوس، حتى ولو تعرَّض لتعذيب وحشى عنيف، فلو أن المصريين يجيدون إعداد وتدريب جواسيسهم، فمن المحتمل جداً أن تكون لديه قصة احتياطية زائفة.

مال المدير إلى الأمام، متسائلاً :

- وهل يمكننا التحقق من هذا ؟!

أجابه (حونين) فى سرعة :

- لقد بدأنا التحقّق منها بالفعل، ولكن هذا يحتاج إلى يومين على الأقل.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف فى صرامة :

- وهم يعلمون هذا حتماً.

عاد حاجبا المدير الكثان ينعقدان، وهو يتساءل، بصوته الأجش الغليظ، فى قلق واضح :

- هل تعتقد أن المصريين سيتحركون، على نحو أو آخر؟!

ارتسمت ابتسامة ساخرة، على شفتى (حونين)، وهو يقول :

- وما الذى يمكن أن يفعلوه ؟!

بدا لبضع لحظات، أنه سيكتفى بقوله هذا، إلا أنه لم يلبث أن تابع فى حزم، لم يخل من السخرية :

- انتصارنا الساحق، فى يونيو ١٩٦٧م، يؤكّد أن المصريين ليسوا بالبراعة التى كنا نتصوّرها، وحتى نجاحهم فى زرع جاسوسهم هذا، فى قلب جيش دفاعنا، لن ينتزع يقينى من أنهم ليسوا بالكفاءة اللازمة، للتعامل مع أجهزة مخابراتنا القوية.

أشار مديره بيده، قائلاً فى صرامة :

- الغرور هو مفتاح الهزيمة يا رجل.

أجابه (حونين)، فى سرعة وحزم :

- ليس غروراً، ولكنه ثقة يا سيِّدى.. ثقة فى قدرة جهاز مخابراتنا، وفى أننا قد اتخذنا كل الاحتياطات اللازمة، حتى المفرطة فى الحذر منها؛ فجاسوسهم سجين فى زنزانة خاصة، فى قبو مقرنا الرئيسى، فى (تل أبيب)، ولقد أمرت بمضاعفة الحراسة حوله، بل وقمت بتلغيم زنزانته، بحيث يمكننا سحقها سحقاً، إذا ما نجحت مجموعة فدائية فى الوصول إليه، على الرغم من أن هذا احتمال بعيد للغاية، يكاد يبلغ حد المستحيل، مع كل ما قمنا به من احتياطات، وإجراءات أمن دقيقة ومعقدة، لمتابعة كل من يدخل حدودنا، عبر المنافذ الجوية، والبحرية، وحتى البرية، والتحقق من هوية كل سائح، فى (تل أبيب)، و(القدس)، و(بئر سبع)، وكل مكان يقع تحت سيطرتنا.

ثم استعاد ابتسامته، مضيفاً :

- المصريون يحتاجون إلى تجنيد بعوضة، حتى يمكنهم الوصول إلى جاسوسهم يا سيِّدى.. اطمئن.

غمغم رئيسه :

- بعوضة ؟!.. أتمنى أن تكون على حق يا (حونين).

شدَّ (حونين) قامته، فى ثقة واعتداد، وهو يقول :

- إننى على حق يا سيِّدى.. اطمئن.. سننتزع كل ما يمكننا من معلومات، من ذلك الجاسوس المصرى، ولن ينجح المصريون فى منعنا من هذا، أو

حتى فى الوصول إليه.. يمكنك اعتبار هذا أمراً محسوماً يا سيِّدى.. لقد خسر المصريون هذه الجولة.. خسروها خسارة فادحة.

نطقها بكل الظفر والثقة..

بل بمنتهى الظفر..

ومنتهى الثقة..

* * *

أطلَّ شك حذر، من عينى ضابط الجوازات الإسرائيلى، وهو ينقل بصره، من جواز السفر التركى، الذى يمسكه بين يديه، إلى وجه الشاب الوسيم، صاحب الشارب الأشقر الضخم، الذى يقف أمام مبتسماً، قبل أن يسأله فى غلظة صارمة:

- ما سبب زيارتك إلى (إسرائيل) يا سيِّد (شوكت)؟!

هزَّ (شوكت) كتفيه، قائلاً بنفس الابتسامة الكبيرة :

- دعاياتكم يا صديقى.. كل مكتب سياحى فى (اسطنبول) يحمل لوحات دعائية عن (إسرائيل)، إلى الحد الذى أسال لعابى؛ لرؤية حائط المبكى الشهير، وكنيسة القيامة، وحتى مزارع البرتقال، و..

قاطعه ضابط الجوازات فى ضجر:

- كفى.

ثم قاوم ضجره، وهو يسأله فى صرامة أقل :

- أهى زيارتك الأولى لدولة (إسرائيل)؟!

اتسعت ابتسامة (شوكت)، وهو يلوّح بيده، فى حركة مسرحية، مجيبا بلهجة مرحة، توحى بأنه مجرّد شاب ثرى عابث :

- واتعشّم ألا تكون الأخيرة.

أجبر ضابط الجوازات نفسه على الابتسام، وهو يقول :

- كلنا نتعشّم هذا يا سيّد (شوكت).

ثم أعاد إليه جواز سفره، قائلاً :

- مرحباً بك فى إسرائيل.

هزّ (شوكت) رأسه، وهو يلتقط جواز سفره، ويدسّه فى جيبه، ثم يحمل حقيبته الوحيدة، ويتجاوز أسوار المنطقة الجمركية فى هدوء، ووجهه ما زال يحمل تلك الابتسامة الكبيرة..

ومن بعيد، داخل سيارة كبيرة، وضع أحد رجال المخابرات الإسرائيلية على عينيه منظاراً مقرّباً، راح يراقب به (شوكت) فى اهتمام، وهو يقول لرفيقه :

- إنه ذلك التركى، الذى أبلغتنا مصادرنا السرية بشأنه.

قال رفيقه فى هدوء :

- عظيم.. هذا يؤكّد صحة معلومات مصادرنا فى (القاهرة) و(اسطنبول).

ثم هزّ رأسه، وافتر ثغره عن ابتسامة واثقة ساخرة، وهو يضيف فى استرخاء :

- بالسخافة المصريين!.. هل تصوّروا أنهم يستطيعون خداعنا، لمجرّد استعانتهم بعميل تركى؟!

ابتسم الأوّل، وهو يقول :

- من سوء حظهم أن أدون (حونين) قد توقع أمراً كهذا.

وخفض المنظار المقرّب عما عينيه، وهو يتابع :

- وبمناسبة الحديث عنه، ينبغى أن نجرى اتصالنا به فوراً ودون إبطاء؛ تنفيذاً لأوامره ؛ لنبلغه أنه كان على حق، وأن المصريين قد خسروا هذه الجولة.. خسروها تماما.

قالها، وأعاد المنظار إلى عينيه، ليواصل مراقبة (شوكت)..

بمنتهى الدقة..

ومنتهى الثقة.

* * *

٣ - الخطوة الثانية..

العريش ...الثالثة عصراً.

شد رجل المخابرات الإسرائيلى، المسئول عن مكتب (الموساد)، فى قلب (سيناء)، هامته، فى اعتداد متغطرس، وهو يراجع قوائم الشباب، الذين تم التعاقد معهم إجبارياً، من أبناء (العريش)؛ للعمل فى قلب (اسرائيل)، وانعقد حاجباه فى صرامة، وهو يلوّح بيده، قائلاً فى حدة:

- لسبت أدرى سبب عنادكم ومقاومتكم.. إنكم ستعملون فى أفضل وأكبر مصانعنا، فى (حيفا)، و(يافا)، و(تل أبيب)، وستحصلون على أجور لم تحلموا بها قط.

تبادل الشبان نظرة صامتة، حملت كل ما تجيش به أعماقهم، من مقت للعدو الإسرائيلى، وإصرار على مقاومته والتصدى له، وإن لم تنطق ألسنتهم بحرف واحد، فعاد رجل المخابرات الإسرائيلى (أبو يعقوب) يشد قامته، وهو يتابع بنفس الصرامة:

- سياراتنا ستحملكم الآن الى (رفح)، ومنها الى (غزة)، حيث ستحصلون على بطاقات العمل الخاصة، وبعدها سيتم نقلكم فى الفجر الى (يافا)، ومن هناك سيتم توزيعكم على المصانع التى ستعلمون بها.

وتضاعفت صرامته وقسوته، وهو يدير عينيه فى وجوههم، مضيفاً:

- هل من أسئلة، فى هذا الشأن؟!

لم يلق أحدهم سؤالاً واحداً، أو يُعلّق بحرف واحد، إلا أن عينى (أبو يعقوب) توقفتا عند وجه أحد الشبان، وسأله فى صرامة:

- ما اسمك يا هذا؟!

تلعثم الشاب، وارتبك على نحو ملحوظ، وهو يجيب فى خفوت:

- (فضل).. اسمى (فضل).

خفض (أبو يعقوب) عينيه إلى القائمة أمامه، وراجع الأسماء فى سرعة، قبل أن يقول :

- (فضل عبد المنعم)؟!

أومأ الشاب برأسه إيجابا فى صمت، فالتقط (أبو يعقوب) نفسا عميقا، قبل أن يسأله فى صرامة :

- ولماذا لا يبدو وجهك مألوفا كالآخرين؟!

هزّ الشاب كتفيه، فى ارتباك مستسلم، دون أن يجيب، فى حين انبرى شاب آخر، يقول:

- إنه خجول ومنطو فحسب يا سيدى، ولا يغادر منزله إلا لماما.

صاح به (أبو يعقوب) فى صرامة :

- وما شأنك أنت؟!

أجابه الشاب الآخر فى سرعة :

- إنه ابن عمى.

نقل (أبو يعقوب) نظره بينهما فى سرعة ودقة، مع لمحة من الشك، ثميِّز أمثاله، من رجال المخابرات الإسرائيلية، ثم توقف لحظة عند وجه (فضل)، الذى احتقن فى ارتباك وتوتر، يشف عن صحة ما قاله ابن عمه، وأشار بعدها بيده، قائلاً :

- إلى السيارات.

ندت همهمات متبرمة من الشباب، وهم يتجهون إلى السيارات الكبيرة، التى تم حشدهم فيها، لتنطلق بهم إلى المصانع الإسرائيلية..

وفى واحدة من السيارات، جلس (فضل) إلى جوار ابن عمه المزعوم، الذى لم تكد السيارة تنطلق، حتى همس فى أذنه:

- المرحلة الأولى مرَّت بنجاح.

رمقه (فضل) بنظرة جانبية صارمة، لم تحمل لمحة واحدة، من الخجل والارتباك والتوتر، التى خدعت (أبا يعقوب)، وهمس:

- ليس الآن.

ولكن الشاب الآخر تابع، وهو يخفى ابتسامته فى صعوبة:

- كل ما تسعى إليه هو الوصول إلى أرضهم.. أليس كذلك؟!

التقط (فضل) نفسا عميقا، وهمس فى صرامة شديدة :

- اصمت.

أدرك الشاب الآخر عندئذ أنه قد تجاوز الحدود، المسموح بها فى عالم المخابرات، فأطبق شفتيه، وتراجع فى مجلسه، وأسبل جفنيه فى محاولة للاسترخاء، فى حين بقى (فضل) هذا جالسا فى صمت، معقود الساعدين، وذهنه يسترجع ذلك المجهود الرهيب، الذى بذله منذ فجر اليوم؛ لبلوغ هذه المرحلة..

فمن القفز بمظلة، من ارتفاع رهيب، قبيل شروق الشمس بلحظات، إلى الهبوط فى قلب (سيناء)، ودخول مدينة (العريش)، إلى ما وصل إليه حالة الآن..

وفى صعوبة، قاوم رغبته فى الابتسامة، وهو يسترجع وسيلة دخوله إلى (العريش)، والتى لم تواجه عقبات تذكر، مع تركيز الإسرائيليين الشديد على مراقبة الخروج منها، وليس الدخول إليها..

ثم راح التعب والإرهاق يتسللان إلى جفنيه، فأسبلهما فى تهالك، وحاول أن يراجع الخطة، التى تدرَّب عليها بسرعة فى (القاهرة)، إلا أن جسده المكدود أجبر عقله على الاسترخاء، و...

وراح فى نوم عميق، والسيارة الإسرائيلية تمضى به وبرفاقه..

وتمضى..

وتمضى..

* * *

بعينين خبيرتين ثاقبتين، راجع رجل المخابرات الإسرائيلى (حونين) كل الصور، التى التقطها رجاله للتركى (شوكت)، ثم نحّاها جانبا، وهو يقول فى صرامة :

- لو أن الأمر بيدى، لاعتبرت وصول هذا التركى هو الدليل المادى الرئيسى، على أن (شولومون) جاسوس للمصريين.

سأله أحد رجاله فى اهتمام :

- هل نلقى القبض عليه يا أدون (حونين)؟!

صمت بضع لحظات، ثم هزّ رأسه فى حزم، قائلاً :

- ليس بعد.

وحمل صوته رنة من الغضب، وهو يضيف :

- لسنا نملك أية أدلة لإدانته.

ثم لوّح بيده، قائلاً :

- واصلوا مراقبته بإحكام؛ فإن عاجلاً أو آجلاً، سيرتكب حتما خطأ ما.

وانعقد حاجباه فى شدة، وهو يستطرد فى مقت :

- وعندئذ سنطبق عليه بلا رحمة.

سأله أحد الرجال :

- ألا يمكننا إلقاء القبض عليه للاشتباه؟!

أدار (حونين) عينيه إليه فى صرامة، وهو يقول :

- وماذا لو أننا لم نجد ما يدينه؟!.. إنه مجرّد سائح تركى، أتى لقضاء إجازة قصيرة فى (إسرائيل)، ولو ألقينا القبض عليه دون مبرّر، سنثير موجة من الغضب فى (تركيا)، وربما أزمة دبلوماسية أيضا.

وازداد انعقاد حاجبيه، وهو يشيح بوجهه، مستطرداً :

- لذا، فسننتظر.

تبادل الرجال نظرة صامتة، قبل أن يغمغم أحدهم :

- كما تأمر يا أدون (حونين).

مط (حونين) شفتيه، وأشار بيده، قائلاً فى صرامة :

- اتركونى وحدى الآن.

أطاع الرجال الأمر، وانصرفوا على الفور، تاركين إياه وحده، فتراجع هو فى مقعده، وشبّك أصابع كفيه أمام وجهه، وغرق فى تفكير عميق..

ثرى هل أرسل عملاؤه فى (اسطنبول) معلومات صحيحة، حول ذلك التركى (شوكت)؟!..

هل يعمل بالفعل، لحساب المخابرات المصرية؟!..

هل؟!..

ولو أنه كذلك، فلماذا أتى إلى (إسرائيل)، فى هذه الظروف بالذات؟!..

لماذا؟!..

لماذا؟!..

التفسير المنطقى الوحيد، من وجهة نظره، هو أنه قد أتى من أجل ذلك الجاسوس (دافيد شولومون)..

ولكن ما الذى يمكن أن يفعله من أجله؟!..

ما الذى يمكن أن يُفكّر فيه المصريون، فى ظروف كهذه؟!..

كان هذا السؤال الأخير هو مصدر قلقه الرئيسى، على الرغم من ثقته الشديدة فى أن (الموساد) أكثر براعة من المخابرات المصرية بكثير..

ربما، لأنه واثق تماما من أن ذلك الجاسوس، الذى أسقطه بنفسه، يمثل بالنسبة لهم أهمية بالغة..

بالغة للغاية..

وأنهم حتما سيحاولون فعل شئ..

أى شئ..

ولكن ماذا؟!..

لماذا؟!..

وظلّ السؤال يدور فى ذهنه طويلاً..

وبلا جواب.. واضح..

* * *

"رقم (أربعة) وصل إلى (غزة)، وتجاوز نقطة التفتيش هناك.."..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت منتصف ليل (القاهرة)، عندما ألقى مندوب الاتصال العبارة، على مسامع العميد، فى حديقة الفيلا الصغيرة، وعلى الرغم من أهمية الخبر، بدا وكأن العميد لم يسمع حرفاً واحداً مما قال، وهو يراقب رقعة الشطرنج بمنتهى الاهتمام والتركيز، فتنحنح مندوب الاتصال، وقال فى حرج :

- سيادة العميد.

وهنا أجابه العميد، فى هدوء وخفوت، ودون أن يرفع عينيه عن الرقعة:

- لقد سمعتك جيّداً.

ثم أدار عينيه إليه، متسائلاً :

- وأعتقد أن كل شئ يسير على ما يرام.

وصمت لحظة، ثم استطرد :

- حتى هذه اللحظة.

عاد بعينيه بضع لحظات إلى رقعة الشطرنج، ثم تساءل فى هدوء :

- وماذا عن رقم (عشرة)؟!

أجابه مندوب الاتصال، بينه وبين جهاز المخابرات، فى سرعة واهتمام، يشقان عن متابعته للموقف بكل جوانبه:

- الإسرائيليون يراقبونه طوال الوقت، بمنتهى الدقة والإحكام، حتى أن...

صمت دفعة واحدة، فسأله العميد فى هدوء، وهو يدير مقعده المتحرك نحوه، ويرفع بصره إليه :

- حتى أن ماذا ؟!

تردد مندوب الاتصال بضع لحظات، فابتسم العميد ابتسامة هادئة، وقال:

- أفصح عما لديك يا رجل.. هذا جزء من عالمنا.. هيا.

حسم المندوب أمره، وقال :

- حتى أنه لن يستطيع تنفيذ دوره، حتى ولو ارتدى طاقية الإخفاء؛ فهم لا يرفعون عيونهم عنه لحظة واحدة، فى قلب (إسرائيل).

حافظ العميد على ابتسامته الهادئة، وهو يسأله :

- وما طبيعة دوره بالضبط ؟!

احتقن وجه مندوب الاتصال، وهو يقول :

معذرة يا سيادة العميد.. من الواضح أننى قد تجاوزت حدودى؛ فلا ينبغى لى أن أعلم، إلا ما تخبروننى به فحسب، وفقًا للقاعدة الأساسية.. (المعرفة بقدر الحاجة)..

اتسعت ابتسامة العميد، وهو يقول :

- لا بأس يا رجل.. لا بأس.

ثم أعاد جسده وعينيه إلى لوحة الشطرنج، وهو يضيف :

- ففى كل الأحوال، حانت لحظة الانتقال إلى الخطوة التالية.

وامتدت أصابعه، تلتقط ملكة الشطرنج*، وتدفعها عبر الرقعة، قبل أن يكمل فى حزم :

- إلى رقم (سبعة).

ولم يفهم مندوب الاتصال ما يعنيه هذا..

لم يفهم أبدًا..

* * *

انعقد حاجبا ضابط المخابرات الإسرائيلى (حونين)، فى شك حذر غريزى، وهو يدلف إلى مكتب مدير (الموساد)، عندما لمح تلك الشقراء

---

* ملكة الشطرنج (Queen) هى القطعة الأكثر قوة على الرقعة، والتى نطلق عليها، فى عالمنا الشرقى (ولأسباب شرقية أيضا)، اسم (الوزير).

الفاتنة، ذات الملامح الرصينة، التى تجلس على مقعد مقابل للمدير تماما، وانتقل حذره إلى صوته ولهجته، وهو يقول :

- سيِّدى.. لقد طلبت رؤيتى.

أشار إليه مدير (الموساد)، قائلاً :

- تقدَّم يا (حونين).. دعنى أقدِّم لك السيِّدة (إليانا).. محامية أمريكية، حضرت للدفاع عن (دافيد شولومون).

ازداد انعقاد حاجبى (حونين) فى شدة، وهو يقول فى توتر :

- (شولومون)؟!.. ولكننا لم نوجِّه إليه أية اتهامات بعد.

نهضت (إليانا) من مقعدها، وقالت فى صرامة، لا تتناسب مع ملامحها الفاتنة :

- وفقًا لما درسته فى (هارفارد)، المفترض أن يبدأ دور المحامى مع بدء التحقيقات، وليس بعد توجيه الاتهامات.

أجابها (حونين)، فى شئ من الشراسة :

- ليس هذا ما قصدته.

قالت بنفس الصرامة :

- ولكنك تستجوب المتهم بالفعل، بدون وجود محام.

بدا أكثر شراسة، وهو يقول :

- من تتحدثين عنه ليس مجرَّد لص، أو سارق، أو حتى متهم بجريمة قتل عادية.. إنه جاسوس.. هل تعلمين ما تعنيه كلمة جاسوس؟!

أجابت بنفسه الصرامة :

- ما أعلمه هو أن التهمة لم تثبت بعد، لذا فهو ما زال مجرَّد متهم، وليس جاسوسا، ووفقًا للقوانين الإسرائيلية، وكل قوانين العالم، لا يجوز استجوابه، دون منحه الفرصة لوجود من يدافع عنه، ويحمى حقوقه.

غمغم مدير (الموساد)، فى ضيق واضح :

- إنها على حق.

نقل (حونين) نظره لحظة إلى المدير، ثم عاد به إلى المحامية (إليانا)، قائلاً فى شراسة أعنف :

- وكيف علمت بسقوطه بين أيدينا؟!.. ومتى علمت؟!..

أجابته فى اعتداد صارم :

- ليس هذا من شأنك.. لدى مصادرى بالتأكيد، وكل القوانين تمنحنى حق الحفاظ على سريتها.

قال فى سخرية وحشية :

- وهل تطوَّعت للدفاع عن الجاسوس المصرى، من تلقاء نفسك؟!

أجابته فى سرعة صارمة :

- لقد تم تكليفى مهمة الدفاع عنه.

هتف بها :

- ومن كلفك إياها ؟!

أجابته بنفس السرعة والصرامة :

- ليس من حقك أن تعرف.

صرخ فجأة :

- لابد وأن أعرف.

صرخت بدورها :

- لن تعرف.. هذا حقى، وحق موكلى.

لوّح (حونين) بسبّابته فى وجهها، وهو يقول فى غضب صارم :

- ومن أدرانى أنك لا تعملين لحساب المصريين؟!

عقدت ساعديها أمام صدرها فى تحد، قائلة :

- وليكن.. حتى فى هذه الحالة، لا يمكنك أن تمنعنى من الدفاع عن متهم.

انعقد حاجباه فى غضب هادر، ولكن مدير (الموساد) لوّح بيده، قائلاً:

- أخشى أنها على حق.

بدا (حونين)، لبضع ثوان، أشبه بصورة مجسّمة للغضب والثورة، إلا

أن ملامحه لم تلبث أن لانت فجأة، وهو يقول:

- فليكن.. ما دام هذا قانونيا.

ارتفع حاجبا مدير (الموساد) فى دهشة، إزاء هذا التحوّل المبالغ، فى حين قالت المحامية فى حزم، وكأنما لم يدهشها هذا أبدا :

- عظيم.. متى التقى بموكلى إذن ؟!

ارتسمت ابتسامة خبيثة، على شفتى (حونين)، وهو يجيب :

- عندما تنتهى الإجراءات القانونية.

التقى حاجبا مديره، وحملت ملامحه تساؤلاً واضحا، وإن لم ينبس ببنت شفة، فى حين تساءلت المحامية فى حذر:

- أية إجراءات ؟!

أشار بيده، قائلاً فى تحد خفى :

- إنك تتحدثين عن مقابلة متهم، يتم التحفظ عليه هنا يا سيّدتى.. فى قلب أخطر جهاز أمنى فى (إسرائيل)، ودخولك إلى المناطق المحظورة لدينا، يحتاج إلى تصريح خاص، وإلى إجراءات أمنية دقيقة؛ لضمان أمننا وسلامتنا، وسرية ما يدور فى أروقتنا.

همّت بقول شئ ما، ولكنه استوقفها بإشارة من يده، مستطرداً فى صرامة شديدة :

- وكلها إجراءات قانونية تماما.

ولثوان، لم تنطق المحامية بكلمة واحدة، وهى تتطلّع إلى عينى رجل المخابرات الإسرائيلى مباشرة، فى تحد واضح، قبل أن تسأله :

- وكم ستستغرق هذه الإجراءات فى رأيك؟!

هزّ (حونين) كتفيه، قائلاً :

- يومان أو ثلاثة، على أقصى تقدير.

قاوم مديره ابتسامته فى صعوبة، وقد أدرك أخيرا ما يسعى إليه رجله، فى محاولته الخبيثة لإضاعة الوقت، اللازم للتحقق من القصة، التى أدلى بها (دافيد شولومون)، تحت وطأة التعذيب الرهيب، قبل أن يسمح للمحامية بمقابلته..

أما المحامية نفسها، فقد عادت تعقد ساعديها أمام صدرها، وهى تقول فى صرامة غاضبة :

- هذا يعتبر تحايلاً على القانون؛ فالمفترض أن يتواجد المحامى مع موكله، منذ اللحظة الأولى للتحقيق، و...

- "يمكنك التقدُّم بشكوى رسمية.."..

قاطعها (حونين) بالعبارة، فى برود صارم، فتضاعفت نبرة التحدّى، فى صوتها وملامحها، وهى تقول :

- هذا ما سأفعله.

هزّ (حونين) كتفيه، فى لا مبالاة، وهو يقول :

- عظيم.. أبلغينا بالنتائج، فور حصولك عليها.

قالها، وابتسم ابتسامة كبيرة متشفية، فتطلّعت هى إليه لحظة، ثم انحنت تلتقط حقيبتها، قائلة :

- فليكن.. سأتخذ كل الإجراءات اللازمة للاحتجاج الرسمى فورا.

أفسح لها (حونين) الطريق، وأشار إلى باب المكتب، قائلاً :

- هذا حقك.

رمقته بنظرة ازدراء، وهى تتجه نحو الباب، بخطوات واسعة سريعة، فهتف خلفها، دون أن تفارقه ابتسامته :

- وبالمناسبة.. اتركى كل بياناتك فى مكتب الأمن، حتى يمكننا الاستعلام عنك، ومنحك التصريح اللازم لمقابلة موكلك.

غادرت الحجرة غاضبة، وتلقّفها الجندى المسئول عن إعادتها إلى الخارج، فى حين اعتدل المدير على مقعده، قائلاً :

- ما رأيك ؟!

تلاشت ابتسامة (حونين)، وحلّت محلّها نظرة مقت رهيبة، وهو يجيب :

- المصريون أرسلوها حتما.

سأله المدير فى اهتمام :

- وهل تعتقد أنه بإمكانك إثبات هذا؟!

تطلّع (حونين) إلى باب الحجرة، الذى غادرته المحامية منذ قليل، وهو يجيب :

- سنبذل قصارى جهدنا يا سيّدى.

وصمت لحظة، قبل أن يلتفت إلى مديره، مستطردا فى صرامة :

- الشئ الذى ينبغى أن تثق فيه، هو أنه، مهما فعل المصريون، فلن يربحوا هذه اللعبة أبدا.

تنهّد مديره، مغمغماً :

- أتعشّم هذا.

شدّ (حونين) قامته، قائلاً فى حزم :

- بل ثق فى هذا يا سيّدى... ثق فيه تماما.

قالها، وغادر مكتب مديره، عائدا إلى مكتبه، وعقله يدير الأمر كله فى أعمق أعماق مخه..

ما الذى يسعى إليه المصريون بالضبط؟!..

أى أسلوب يتبعون ؟!..

إنهم لا يسيرون على النسق المعتاد، فى عمل المخابرات!!..

بل ولا على أى نسق معروف!!..

فما الذى يفعلونه إذن؟!..

وما الذى يتوقعون تحقيقه، فى ظروف تسيطر فيها المخابرات الإسرائيلية على الموقف كله؟!..

بدا له الموقف غامضا، محيّرا، و...

فجأة، انقطعت أفكاره، مع رنين هاتفه الخاص، فالتقط سمّاعته فى سرعة وآلية، ووضعها على أذنه، قائلاً فى صرامة:

- ماذا هناك؟!

أتاه صوت أحد رجاله، وهو يقول :

- أدون (حونين). إنه أنا.. (إيتان)..

اعتدل (حونين) على مقعده، متسائلاً :

- ماذا هناك يا (إيتان)؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

- ذلك التركى.. لقد بدأ تحركا إيجابيا.

تضاعف اهتمام (حونين) وانتباهه، وهو يسأله :

- على أى نحو؟.

وأخبره الرجل..

وانعقد حاجبا (حونين) بمنتهى الشدة..

فما فعله ذلك التركى، كان خطيراً بالفعل..

وإلى حد مدهش.

* * *

٤ - القانون..

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى العميد، عندما شاهد اللواء يدلف إلى حديقة فيلته الصغيرة، وأشار بيده إلى المقعد المجاور له، قائلاً :

- مرحباً يا سيادة اللواء.. لا يمكنك أن تتصوَّر كم تسعدنى زياراتك هذه.

استقر اللواء على المقعد المجاور، قائلاً :

- إنها تسعدنى بأكثر مما تسعدك يا رجل.

ثم ابتسم بدوره، متسائلاً :

- أما زلت تمارس لعبة الشطرنج منفرداً ؟!

هزَّ العميد كتفيه، قائلاً :

- هذا أحد الأساليب المعروفة.

مطَّ العميد كتفيه، قائلاً :

- فى رأيى.. ليس من المتعة أن تنافس نفسك.

تراجع العميد فى مقعده المتحرك، وابتسم ابتسامة غامضة، وهو يقول فى هدوء أكثر غموضاً :

- ومن قال : إننى أفعل؟!

ألقى اللواء نظرة على رقعة الشطرنج، وهمّ بإلقاء سؤال ما، إلا أنه لم يلبث أن أحجم عن هذا، واعتدل فى مقعده، قائلاً :

- يقولون : إن الأمور تسير على نحو متزن، فى (تل أبيب).

أومأ العميد برأسه إيجاباً، وقال :

- أعتقد هذا.

تطلّع إليه اللواء بعض الوقت فى صمت، قبل أن يتساءل :

- أما زلت تصرّ على مزاولة عملك من هنا؟!.. ألم تراودك الرغبة، فى العودة إلى مكاتب الإدارة؟!

لم يدر اللواء أى انفعال حملته ابتسامة العميد بالضبط، وهو يجب فى هدوء رصين :

- إننى أتوق إلى هذا كثيراً فى الواقع.

ثم تراجع فى مقعده المتحرك، مضيفاً :

- ولكننى لا أنوى فعل هذا أبداً.

بدت الدهشة على وجه اللواء، وهو يتساءل :

- ولم لا ؟!.. لست أظنك تخشى مواجهة زملائك، أو ترفض العودة لمكتبك القديم، الذى يذكرك بـ...

قاطعه العميد مبتسما :

- لا هذا ولا ذاك يا سيادة اللواء.. إنها ليست مجرّد مشاعر شخصية.. إنه قرار عملى بحت.

ردّد اللواء، فى دهشة أكثر :

- قرار عملى ؟!

أشار العميد بسبّابته، قائلاً :

- بالتأكيد، فكما تعلم، اعتاد كل جهاز مخابرات أن يبذل الكثير من الجهد، لمعرفة أفراد جهاز المخابرات الخصم، وتحديد أسلوبهم، وأيديولوجيتهم الفكرية، كوسيلة لكشف سبل عملهم، وطرقهم فى إدارة عملياتهم، ومما لا شك فيه أننا، كما نعرف رجالهم وأساليبهم، من عملياتهم السابقة، فهم، إلى حد ما، يعرفون رجالنا وأساليبنا، من مواجهات ماضية.

أطلّ شئ من الحيرة، من عينى اللواء، وهو يقول :

- وما علاقة هذا بذاك.

تنهّد العميد، قائلاً :

- بالنسبة لهم، أنا رجل مخابرات سابق.. ضابط مصاب ومقعد.. ومتقاعد أيضاً، وهذا يعنى حذفى من قائمة الخصوم، وابتعاد صورتى عن الأذهان تماماً، وهذا يتيح لى العمل بحرية أكثر.

وصمت لحظة، ثم أضاف :

- وببراعة أكثر أيضا.

ارتفع حاجبا اللواء، وهو يتطلّع إليه فى إعجاب، قبل أن يبتسم، وهو يقول :

- ألهذا غيّرت أسلوبك تماما، فى هذه العملية ؟!

عاد العميد يهزّ كتفيه، قائلاً :

- هذا يربكهم أكثر، فهم يجهلون تماما من يواجهون.

أشار إليه اللواء، وهو يقول فى حزم :

- والأهم أنهم يجهلون تماما، ما الذى نسعى إليه بالضبط.

استعاد العميد ابتسامته الهادئة، وهو يقول :

- هذا صحيح.

اعتدل اللواء على مقعده، وسأله فى اهتمام :

- وما الخطوة التالية الآن؟!.. أعنى ما الذى تنوى فعله، حتى نستعيد رجلنا (وليد)، وننقذه من بين براثنهم؟!

صمت العميد بضع لحظات، تطلّع خلالها إلى رقعة الشطرنج، قبل أن يعود بعينيه إلى اللواء، مجيبا :

- لن أفعل شيئاً.

ارتفع حاجبا اللواء، فى دهشة بالغة، فمال العميد نحوه، مكملاً :

- هم سيفعلون.

وبدت إجابته عجيبة غامضة..

غامضة للغاية..

* * *

لم تكد سيارة (حونين) تتوقف، عند ناصية ذلك الشارع الرئيسى فى (تل أبيب)، حتى هرع إليه أحد رجاله، وقال وهو يفتح باب سيارته:

- إنه ما زال بالدخل يا أدون (حونين).

سأله (حونين)، وهو يغادر السيارة :

- هل التقط رجلنا صورة تلك الرسالة ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجاباً، وهو يقول :

- بالطبع يا أدون (حونين).. لقد التقط صورتها، ثم أعادها إلى موضعها، وفقاً للتعليمات والقواعد، ويتم إظهار الصورة الآن، وستكون بين أيدينا خلال دقيقة واحدة.

ألقى (حونين) نظرة على المطعم البعيد، قبل أن يسأل الرجل:

- صف لى مرة أخرى ما حدث بالضبط؟!

التقط الرجل نفساً عميقاً، وقال :

- لقد تتبعناه إلى هنا، ورأيناه يدخل المطعم، ويتناول طعام الغداء فى هدوء، ثم رآه رجلنا يدخل حمام المطعم، ويغيب فيه لبضع دقائق، ثم يعود إلى ماندته فى هدوء، فاستنتج رجلنا أنه كان يسعى إلى نقطة ميتة، ليضع فيها رسالة ما، سيلتقطها بعده عميل خفى حتماً، لذا فقد سارع بدخول دورة المياه مباشرة، وأغلق بابها خلفه فى إحكام، وقام بتفتيشها جيداً، بمنتهى السرعة والدقة، حتى عثر على الرسالة، المكتوبة بشفرة خاصة، خلف جهاز الضخ، فالتقط صورتها، بآلة التصوير الصغيرة، التى يحملها فى جيبه دوماً، ثم أعادها إلى موضعها، حتى يعثر عليها العميل المنتظر.

سأله (حونين) فى اهتمام :

- وهل عرفتم من هو العميل المنتظر ؟!

أجابه فى سرعة :

- لقد التقط رجلنا صور كل من دخل إلى دورة المياه بعدها، ثم عاد إليها، فوجد أن الرسالة قد اختفت تماماً.

قال (حونين)، وهو يُفكر فى عمق :

- عميله هنا، هو أحد الذين تم التقاط صورهم إذن.

أجابه الرجل :

- بالتأكيد.

صمت (حونين) بضع لحظات، وهو يدير الأمر فى رأسه، فقال الرجل فى حماس :

- يمكننا اعتبار ما حدث دليلاً، على تورُّط ذلك التركى فى أعمال الجاسوسية، و...

قاطعه (حونين) بإشارة صارمة من يده، فأطبق شفتيه على الفور، ولاذ بالصمت التام، حتى استدار إليه ضابط (الموساد)، قائلاً فى صرامة آمرة قاسية :

- أريد مراجعة هوية كل من تم التقاط صورته، والبحث عمن لدينا أية ملفات أو معلومات بشأنه، أما الباقين فعليكم البحث عنهم، ومراقبتهم بمنتهى الدقة.

شد الرجل قامته، قائلاً :

- كما تأمر يا أدون (حونين).

لم يكد يتم عبارته، حتى أسرع نحوهما رجل آخر، وناول (حونين) صورة ضوئية كبيرة، لم تجف بعد، وهو يقول:

- صورة الرسالة يا سيدى.

التقط (حونين) الصورة فى سرعة، وقرأ كلمات الرسالة، بل التهمها

التهاما، قبل أن يقول فى غضب :

- هذا يحسم الأمر.

سأله الرجل الأول :

- أهو دليل على تورّط التركى ؟!

هزّ (حونين) رأسه نفيا، وهو يجيب :

- بل هى شفرة تخص المصريين.

ثم رفع رأسه، مستطرداً فى صرامة :

- شفرة كشفنا مفتاحها منذ فترة قصيرة، ولكنهم يجهلون هذا تماما.

وناول صورة الرسالة للرجل الثانى، قائلاً :

- أرسلها إلى قسم الشفرة فوراً، واطلب منهم ترجمتها، دون إضاعة ثانية واحدة.

قال الرجل فى حماس :

- فوراً يا أدون (حونين)... فوراً.

ومع إسراعه لتنفيذ الأمر، سأل (حونين) الرجل الأول فى صرامة :

- أما زال التركى فى الداخل ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجاباً، وقال :

- ما زال يتناول طعامه بمنتهى الهدوء..

قال (حونين) بنفس الصرامة :

- عظيم.. هذا يعنى أنه لا يشعر بمتابعتنا له إذن.

وصمت بضع لحظات أخرى، قبل أن يقول آمراً :

- واصلوا مراقبته، وتسجيل تحركاته واتصالاته بمنتهى الدقة، حتى يقوم قسم الشفرة بحل الرسالة، ونعرف ما يستهدفه، و...

قبل أن يتم عبارته، ارتفع رنين هاتف سيارته، فعاد إليها فى سرعة، ورفع سمّاعته، قائلاً :

- (حونين).. من المتحدّث ؟!

ثم انعقد حاجباه فى شدة وغضب..

فالذى أبلغوه به، من مقر قيادة (الموساد)، كان كفيلاً بإفساد خطته كلها، وقلبها رأسا على عقب..

بقوة..

* * *

"لقد استصدرت أمراً، بحتمية لقاء موكلى.."..

نطقت المحامية (إليانا) العبارة، فى تحد واضح، وهى تعقد ساعديها أمام صدرها، فى مواجهة (حونين)، داخل مكتب مدير (الموساد)، الذى

أشار إلى ورقة على سطح مكتبه، قائلاً فى ضيق :

- لست أدرى كيف فعلتها بهذه السرعة، ولكنه أمر قضائى عاجل، من محكمة (تل أبيب) العليا، بأن نسمح لها بمقابلة موكلها على الفور، ودون إبطاء.

مدّ (حونين) يده، يلتقط تلك الورقة، من فوق مكتب المدير، قائلاً فى غلظة :

- دعنى أقرأها..

واصلت المحامية نظرتها المتحدية إليه، وهو يطالع الأمر القضائى، قبل أن يسألها هو فى صرامة، حملت رنة غضب:

- كيف منحوك تصريحا بهذه الخطورة، فى هذا الزمن القصير؟!

هزّت كتفيها، مجيبة :

- كما أخبرتك من قبل.

ثم مالت نحوه، مستطردة فى تحد :

- لدى أساليبى.

لوّح بالورقة فى حدة، قائلاً :

- نحن أيضا لنا أساليبنا أيتها المحامية، وهى تختلف كثيراً عن أساليب المحامين المحتالين، ولدينا أيضا قسم ضخم للشئون القانونية، وذلك القسم

أنبأنى، أنه من المستحيل استصدار أمر كهذا، قبل مرور أربع وعشرين ساعة على الأقل.

هزّت كتفيها مرة أخرى، وهى تقول فى برود :

- هذا شأنهم.

أجابها فى صرامة :

- وشأننا أيضا..

ثم ألقى الأمر القضائى، على سطح مكتب المدير، الذى يتابع الموقف فى صمت، وبدأ يدور حولها، قائلاً :

- لقد تحرينا أمرك، وجمعنا بعض المعلومات بشأنك.

قالت فى هدوء مستفز :

- هذا حقك.

ثم استدركت فى سرعة :

- قانونا..

قال فى شئ من الشراسة، وهو يواصل دورانه حولها :

- فى مثل هذه الأحوال، ليس القانون كل ما يشغلنا يا سيّدتى.

قالت، وكلماتها تحمل رنة ساخرة :

- عجباً!.. إنكم تتشدقون طوال الوقت، بما أسميتموه بتجربتكم الديموقراطية المنفردة، فى المنطقة العربية.

تجاهل قولها تماما، وتابع وكأنه لم يسمعها :

- تحرياتنا تقول : إنك أمريكية الجنسية، ولكنك تتعاطفين تماما مع مزاعم الفلسطينيين.

قالت ساخرة :

- لم أنكر هذا أبداً، والأمر لم يكن يحتاج إلى تحريات معقدة، فلو سألتنى لأخبرتك فوراً.

توقف ليسأل فى تحد :

- عن إيمانك بمزاعم الفلسطينيين؟!

ردّدت فى سخرية :

- مزاعم الفلسطينيين ؟!

ثم انطلقت من حلقها ضحكة قوية عالية، احتقن معها وجه (حونين)، فى حين تساءل رئيسه فى ضيق :

- ما الذى يضحكك بالضبط يا سيّدتى؟!

أشارت بيدها، مجيبة:

- مصطلح (مزاعم الفلسطينيين) هذه، ففى عالمنا، نطلق عليه اسم

الاحتيال اللفظى؛ إذ أن العالم كله يطلق على الأمر نفسه اسم (حقوق الفلسطينيين)، أما أنتم، فتستبدلون كلمة (الحقوق) بكلمة (المزاعم)، فقط لتتظاهروا بأنكم أنتم على حق، فى احتلال الأراضى الفلسطينية، وطرد وتشريد سكانها، أو...

قاطعها مدير (الموساد)، فى صرامة مفاجئة :

- هذا القول لا يصلح هنا يا سيّدتى.

عادت تهز كتفيها، وكأنما يرتبط هذا بشخصيتها، وهى تقول:

- هو بدأ هذا.

رماها (حونين) بنظرة صارمة متحدية، وهو يقول :

- اعتدت أن أبدأ كل شئ.

قالت فى سرعة :

- ليست البراعة فى أن تبدأه.

ثم مالت نحوه، مستطردة فى تحد مماثل :

- بل فى أن تنهيه.

نئوان، بدا الاثنان أقرب إلى تمثالين من الشمع، يرمزان إلى العناد والإصرار والتحدّى، حتى أن المدير قال فى توتر:

- فليكن.. دعونا نحسم هذه اللعبة السخيفة.

كانت هى أوّل من اعتدل، وهى تقول فى حزم :

- أريد مقابلة موكلى.

فاندفع (حونين) يسألها فى صرامة :

- لماذا ؟!

هزّت كتفيها، قائلة :

- ليس هذا من شأنك.. هذا حقه.. وحقى.

شدّ (حونين) قامته، وهو يقول فى صرامة :

- دعينى أخبرك أنا إذن لماذا ؟!

اعتدل المدير فى مقعده باهتمام، وخفضت هى ساعديها عن صدرها، فى حين تابع هو، وهو يعاود الدوران حولها:

- إنك لا ترغبين فى التحدُّث إليه، أو حتى فى مراجعته أقواله واعترافاته، بل الواقع أنك هنا، لتنقلى إليه رسالة.

سألته فى هدوء :

- أية رسالة ؟!

أشار بيده، وهو يواصل الدوران حولها، قائلاً :

- رسالة من المصريين.. من قيادته فى (القاهرة)، رسالة تخبره أنهم إلى جواره، ولم يتخلّوا عنه.

ثم توقّف فجأة، وعقد ساعديه خلف ظهره، مضيفًا :

- باختصار.. رسالة تفسد كل ما نسعى إليه معه.

صمتت المحامية لحظة، ثم قالت فى صرامة أنثوية :

- عجبًا!.. كنت أتصوّر أنك ستجيدون اللعبة، وفقًا للقواعد، وستسجلون كل لحظة من لقائى بموكلى، بالصوت والصورة، حتى ولو كان هذا يخالف دستور الحياة نفسه.

ابتسم فى سخرية، وقال :

- رويدك يا سيّدتى.. كلانا محترف فى مضماره، وكلانا يعلم أنه حتى التسجيل بالصوت والصورة، بل وحتى التواجد المباشر بينكما، لن يمنعك أبدًا من نقل الرسالة إليه؛ فهى قد تكون مجرّد غمزة، أو لمزة، أو حتى عبارة عادية، برينة المظهر والمعنى، ولكنها تحمل شفرة الاتصال الخاصة التى تبلغه الرسالة.

قالت، مقلّدة سخريته :

- عظيم.. سأحاول الاستفادة بهذه المعلومات القيمة، فى المستقبل.

مال نحوها، قائلاً :

- هذا لو أنه لديك مستقبل.

انعقد حاجباها فى صرامة شديدة، وهى تقول :

- هل تهددنى، يا رجل المخابرات؟!

أجابها فى صرامة :

- بالتأكيد.

بدت عليها دهشة حقيقية لجوابه العنيف، فاستدرك فى سرعة وحزم وقسوة :

- ولكنك لن تجدى شاهداً واحداً، على أننى قد قلت كلماتى هذه !

استدارت فى بطء، نحو مدير المخابرات الإسرائيلى، فأشاح بوجهه فى حسم، وكأنما يعلن أنه خارج اللعبة كلها، فعادت ببصرها إلى (حونين)، وعادت تعقد ساعديها أمام صدرها، قبل أن تقول فى حزم :

- فليكن.. لن أضيع الوقت، فى مناقشة هذه السخافات.. سأعود إلى سؤالى الأول.. متى ألتقى بموكلى، بموجب هذا الأمر القضائى؟!

صمت (حونين) تماماً لبعض الوقت، وتبادل نظرة صامتة مع مديره، قبل أن يقول فى حزم :

- عندما يتم إحضاره إلى هنا.

انعقد حاجباها فى شدة، وهى تقول :

- ولكنه هنا بالفعل.

استوعب المدير على الفور ما يسعى إليه (حونين)، فعاد يشيح بوجهه فى صمت، محاولاً إخفاء ابتسامة إعجاب بضابطه، الذى أجاب المحامية فى برود :

- لا يمكنك التقين من هذا.. والقانون نفسه لا يمكنه أن يجزم بهذا، فربما ألقينا القبض عليه، وأحضرناه إلى هنا بالفعل، ثم اضطرتنا ظروف التحقيق إلى نقله إلى جهة أخرى فيما بعد.

وتسللت لمحة ساخرة إلى كلماته، وهو يتابع :

- جهة سرية، لا يحق للقانون أو رجاله، معرفتها، أو زيارتها، أو حتى إجبارنا على البوح بها.

تطلعت إلى عينيه لحظة فى صمت، يحمل كل معانى التحدى، قبل أن تقول فى هدوء عجيب :

- القانون لا يمكنه أن يجبرك، على الإفصاح عن مقارك السرية، ولكنه يرغمك حتماً على السماح لى بلقاء موكلى، كما أنه يمتلك صلاحيات أخرى أيضاً.

ومالت نحوه، مضيفة :

- كتفتيش مقركم هذا مثلاً، وإثبات أنكم مخادعون، وأن المتهم موجود بالفعل هنا، وليس فى أى مكان آخر.

شدّ (حونين) قامته، وهو يقول، فى صرامة متناهية :

- القانون لا يمكنه أن...

قاطعه مديره هذه المرة، قائلاً :

- بل يمكنه هذا يا (حونين)..

استدار إليه (حونين) فى حدة، فاضاف بلهجة خاصة :

- القاضى نفسه، الذى استصدر أمراً بلقاء المتهم، يمكنه أن يستصدر أمراً بالتفتيش، عبر لجنة قضائية خاصة، لو شك فى أننا نحاول التحايل على القانون.

انعقد حاجبا (حونين) فى شدة، فقالت المحامية فى شئ من الشماتة:

- أرأيت ؟!

استدار إليها بحركة حادة، قائلاً :

- ما زلت أصرّ على أنه ليس هنا.

تبادلت معه نظرة متحدية لبضع لحظات، قبل أن تلتقط حقيبتها، قائلة :

- فليكن.. سأتخذ الإجراءات اللازمة.

غادرت الحجرة فى اعتداد غاضب، فقال المدير فى توتر :

- ما دامت قد استصدرت الأمر الأول، فلن يرهقها استصدار الأمر

الثانى.

بدا (حونين) شديد التوتر، وهو يستدير لإجابة مديره، إلا أن دقات قوية على باب المكتب، استوقفته على نحو مباغت، فاستدار إلى الباب، الذى دلفا منه السكرتير الخاص للمدير، وهو يقول :

- قسم الشفرة أرسل هذه الترجمة العاجلة، لأدون (حونين).

بدا وكأن (حونين) قد وثب، ليلتقط المظروف من السكرتير، ثم فضه، والتهم كلماته فى سرعة، قبل أن يستدير إلى المدير، ويقول فى انفعال جارف :

- لقد كشفنا الخطة.. كشفنا لعبة المصريين.

وكانت مفاجأة..

بالفعل.

* * *

٥ - الذروة..

بدا الإرهاق واضحاً، على وجوه الشباب، الذين أوصلتهم الحافلة العسكرية الضخمة، إلى المنطقة الصناعية فى (تل أبيب)، على عكس الضابط، الذى تولّى أمرهم من المطار، والذى شد قامته، قائلاً فى صرامة :

- كل منكم تسلّم خطاب عمله، وكل منكم يعرف المصنع، الذى سيعمل فيه هنا.. والآن.. فلتتراصوا فى صفوف منتظمة.. كل مجموعة، تابعة لمصنع واحد، فى صف بعينه.. هيا.

جرجر الشباب أقدامهم المتهالكة؛ لينفذوا أمر الضابط الإسرائيلى، وقال أحدهم، وهو يفتح عينيه فى صعوبة:

- أخبرنى بالله عليك، كيف يمكنك أن تحتفظ بنشاطك ولياقتك، بعد رحلة شاقة كهذه.

أجابه (فضل)، فى هدوء واثق قوى :

- بالتدريب المستمر.

سعل الشاب فى إرهاق، ثم سأله، وهم يتراصون فى صفوفهم شبه المتوازية :

- أين كنت تعمل بالضبط، قبل أن تلتحق بجهاز الـ... أعنى بنظام الأمن

الـ...

قاطعه (فضل)، فى صرامة شديدة :

- اصمت.

أطبق الشاب شفتيه، وراح يجرجر قدميه مع الباقين، ليتجهوا جميعاً نحو المصانع الإسرائيلية، التى أجبرهم الإسرائيليون على العمل فيها، وذهنه يطرح ألف سؤال وسؤال..

وعند مدخل المصنع، ومع تزاحم الجميع، التفت خلفه، وتساءل :

- ولكن متى...

توقّف التساؤل بغتة فى حلقه، واتسعت عيناه عن آخرهما، وخفق قلبه فى عنف، على الرغم من تهالك جسده الشديد، وهو يبحث ببصره عن (فضل)، وسط جموع العمال، الذين تزاحموا عند منطقة المصانع..

ولكن (فضل) لم يكن بين الجموع..

أو حتى وسط أى صف آخر من صفوف الشباب، أو العمال..

فعلى نحو ما، وبوسيلة لم يفهمها الآخر أبداً، استغل (فضل) الزحام والفوضى، واختفى من المكان..

اختفى تماما..

* * *

"الملازم أوّل (رافت).. احم.. اقصد رقم (أربعة)، نفذ بالفعل القسم الثالث من دوره، يا سيادة العميد.."..

نطق مندوب الاتصال، بين المخابرات المصرية، وتلك الفيلا الصغيرة العبارة، فى حماس واضح، جعل العميد يبتسم، وهو يرفع عينيه إليه، قائلاً فى هدوء :

- أين وصل بالضبط ؟!

أجابه مندوب الاتصال فى سرعة :

- لقد فرّ من المنطقة الصناعية فى (تل أبيب)، باستخدام كل ما تعلّمه، فى القوات الخاصة، وهو فى طريقه الآن لمقابلة مجموعة الاتصال الفلسطينية، التى تتعاون معنا.

غمغم العميد فى هدوء :

- عظيم.

تردّد مندوب الاتصال بضع لحظات، قبل أن يقول :

- سيادة العميد، هل يمكننى أن أطرح بعض الأسئلة، أم اننى اكون بهذا قد تجاوزت حدودى ؟!

بدا شبح ابتسامة، على شفتى العميد، وهو يقول :

- هذا يتوقف على طبيعة الأسئلة.

وصمت لحظة، ثم أضاف :

- ويمكننا أن نعتبر هذا جزءاً من دورتك التدريبية، فى عالم المخابرات.

بدا الارتياح على وجه مندوب الاتصال، هذا سيخفف من توتر الموقف، وسيتيح لك استيعاب الأمور، على نحو أفضل.

جذب مندوب الاتصال مقعداً، وجلس أمامه، وهو يتساءل، قبل حتى أن يستقر على مقعده :

- ما زال يدهشنى، كيف استصدرت الآنسة (هناء).. أقصد رقم (سبعة)، ذلك الأمر القضائى الإسرائيلى، الذى يتيح لها مقابلة رجلنا، فى هذه الفترة القصيرة، على الرغم من أن هذا يحتاج بالفعل إلى يوم كامل على الأقل؟!

وتردّد لحظة، قبل أن يضيف :

- ترى ألنا عميل خاص، فى ساحة القضاء هناك ؟!

هزّ العميد رأسه فى بطء، وهو يتطلّع إلى رقعة الشطرنج، ودفع أحد البيادق خطوة إلى الأمام، وهو يقول:

- كلا بالطبع، فرجال القضاء، فى أية دولة، يتم اختيارهم بدقة، وتجنيد أحدهم، للعمل لحسابنا، يمكن كشفه بمنتهى البساطة، وخاصة فى ظروف كهذه.

تساءل مندوب الاتصال الشاب فى حيرة :

- كيف استصدرت رقم (سبعة) الأمر إذن، بهذه السرعة ؟!

تراجع العميد فى مقعده بهدوء، قائلاً :

- استصدار الأمر، استغرق الوقت الطبيعى، فى أية ظروف أخرى .

قال المندوب فى حيرة أكثر :

- ولكن يا سيِّدى..

استوقفه العميد بإشارة من يده، وهو يقول، متابعاً :

- ولكنها تقدَّمت بالطلب، قبل أن تذهب فعلياً إلى مبنى المخابرات الإسرائيلى، بيوم واحد.

وهنا، بلغت دهشة المندوب ذروتها، فارتفع حاجباه عن آخرهما، وهو يحدِّق فى العميد، قائلاً :

- ولكن لماذا ؟!

أجابه العميد، وهو يعود ببصره إلى رقعة الشطرنج فى اهتمام :

- للتأثير فى الضابط الإسرائيلى، الذى يدير العملية هناك، وللإيحاء له بأن لديها مصدراً قضائياً، ينفذ كل مطالبها، فى أسرع وقت ممكن.

سأله مندوب الاتصال فى لهفة :

- وبم يمكن أن يفيد هذا ؟!

أجابه العميد، فى سرعة وهدوء :

- فى الخطوة التى تلى هذا.

تساءل المندوب الشاب، فى سرعة أكثر :

- هى ؟!..

وهنا طال صمت العميد، وهو يراقب رقعة الشطرنج، حتى أن المندوب قد شعر بالحرج، فتنحنح متمتماً :

- أعتذر، لو أننى...

قاطعه العميد فجأة، وهو يسأله :

- هل درست ما يعرف باسم (الحصار) ؟!

راجع الشاب معلوماته فى ذهنه بسرعة، وهو يجيب :

- بالطبع.. إنها الحالة التى نضع الخصم فيها فى مأزق، بحيث تبدو الأبواب كلها أمامه مغلقة، فلا يعود بوسعه إلا أن يتخذ طريقاً واحداً لا غير.

أشار العميد بسبَّابته، قائلاً :

- بالضبط.. وذلك الطريق يكون دوماً المسار، الذى ننتظره فيه.. أليس كذلك؟!

تردَّد المندوب لحظة، ثم قال فى حذر :

- بلى يا سيادة العميد، ولكنهم يقولون : إن الحصار هو أصعب أنواع المناورات، فى عالم الجاسوسية.

عاد العميد يشير بسبّابته، قائلاً :

- ما لم تتبع قواعد الشطرنج.

ردّد الشاب، فى حذر متزايد :

- قواعد الشطرنج ؟!

أجابه العميد، فى هدوء واثق :

- بالضبط.. أن تستوعب أسلوب خصمك، وتكنيكه، ووسائله، وتستخدم كل هذا، لاستنتاج ردود أفعاله المستقبلية، وخطواته التالية، ولعدة خطوات قادمة.

صمت المندوب طويلاً، وهو يتطلّع إليه، قبل أن يغمغم، وقد بلغ حذره مبلغه :

- إننى أحاول استيعاب المغزى.

عاد شبح الابتسامة إلى شفتى العميد، وهو يقول :

- بل الأكثر براعة أن تضع نفسك فى موضع خصمك، وتطرح على نفسك الأسئلة نفسها، التى سيطرحها هو على ذهنه، فى ظروف كهذه.

ساله المندوب فى اهتمام :

- مثل ماذا ؟!

أجابه العميد على الفور :

- مثل ما الذى ينبغى أن تفعله، إذا ما حاصرك خصمك، وحاول إفساد عمليتك، عن طريق الوصول إلى عميل، تؤمن تماماً بأن مجرّد الاتصال به، قد يفسد عملية كبرى؟!

استغرق الشاب فى التفكير بضع لحظات، ثم أجاب فى تردّد :

- سأسعى لإبعاد ذلك العميل، عن متناول يد الخصم بأى ثمن.

أشار إليه العميد، قائلاً فى حزم :

- بالضبط.

بدا الاهتمام على وجه الشاب، وهو يستوعب الأمر، قبل أن يتساءل:

- ولكن لو أننى محترف مثلك يا سيّدتى، فقد أدرك أن هذا بالضبط ما يسعى إليه الخصم... صحيح أن تصوّره أن رقم (سبعة) يمكنها استصدار أمر عاجل بالتفتيش، كما استصدرت أمر المقابلة، قد يدفعه إلى محاولة نقل رجلنا، خارج مبنى (الموساد) المنيع، إلا أن حرفيته قد تدفعه إلى التروّى، فى اتخاذ مثل هذا القرار الخطير.

مال العميد نحوه، قائلاً :

- ما لم يدفعه إلى هذا عامل آخر، لا يحتمل التأجيل.

تساءل مندوب الاتصال الشاب فى لهفة :

- وأى عامل هذا.

مال العميد نحوه أكثر، مجيباً :

- رقم (عشرة).

واتسعت عينا المندوب الشاب، وهو يهتف :

- (شوكت) ؟!

تراجع العميد فى مقعده، قائلاً بابتسامة هادئة :

- بالضبط.

وهنا عقد مندوب الاتصال حاجبيه مرة أخرى، وراح يعتصر ذهنه وعقله، فى محاولة لاستيعاب الأمر، وهو يتساءل: تُرى ما الدور الحقيقى، الذى يقوم به رقم (عشرة) هناك..

وفى هذه المرة، لم يجرؤ على طرح السؤال..

لم يجرؤ أبداً..

* * *

تراجع (حونين) فى مقعده للمرة الثالثة، منذ دلف إلى مكتبه، بعد أن تسلّم ترجمة دقيقة، للرسالة التى تركها (شوكت) خلفه، فى النقطة الميتة، داخل ذلك المصنع فى (تل أبيب)..

كانت رسالة قصيرة، مكتوبة بشفرة مصرية، تقول : "الطائر ما زال فى

العش.. استعدوا لعملية صيد عاجلة.."..

كانت رسالة غير واضحة، بالنسبة لأى قارئ عادى، إلا أنها، فى عالم الجاسوسية، كانت تعنى الكثير..

والكثير جداً..

وبالذات فى مثل هذه الظروف..

ومع المعلومات، التى وردت من جهات عدة، فى قلب (إسرائيل)، بدت تلك الرسالة الشفرية واضحة للغاية..

وإلى أقصى حد..

وفى حزم، اعتدل (حونين) على مقعده، وهو يسأل أحد الرجال أمامه، فى صرامة شديدة :

- هل تابعتم المشتبه فيهم، فى واقعة المطعم؟!

أجابه أحد رجاله فى سرعة :

- لقد تعرّفنا هوية معظمهم، وتعقّبنا نشاطاتهم، بقدر ما يسمح به ضيق الوقت، وتبقى أمامنا اثنان منهم فحسب، ما زلنا نسعى للبحث عن هويتهما.

أومأ برأسه متفهماً، قبل أن يقول :

- وماذا عما يتردّد فى الشارع ؟!

أجابه رجل آخر :

- مصادرنا تشير إلى أن بعض المنظمات العسكرية الفلسطينية، تخطط لهجوم منظم، على مقر جهة أمنية عليا، نعتقد أنها مقرنا هذا.

انعقد حاجبا (حونين) فى شدة، وهو يقول فى صرامة :

- تعتقدون ؟!

أشار الرجل بيده، قائلاً :

- لا توجد أية أدلة مؤكدة بعد، ولكن الكل يعتقد أنها عملية مدروسة، خطط لها المصريون، عبر اتصالاتهم الفلسطينية؛ لشن هجوم انتحارى على مقرنا، وتحرير (دافيد شولومون).

قال (حونين) فى حدة :

- استنتاج خطير كهذا، يحتاج إلى أدلة قوية.

قال رجل ثالث :

- يمكننا أن نعتبر هذا يا أدون (حونين)، فأحد أهم جواسيسنا فى (القاهرة)، أكد أنهم يدبرون هناك، للقيام بعملية عنيفة، ضد مقرنا هنا، ورجلنا فى الأوساط الفلسطينية، يشير إلى وجود نشاط غير تقليدى، فى الجناح العسكرى لبعض المنظمات، كما يلمح إلى وجود اتصالات مكثفة، بين الجانبين، الفلسطينى والمصرى، فى الآونة الأخيرة.

التقط (حونين) نفسا عميقا، وقال :

- هذا يجعل الأمر واضحا، إلى حد كبير.

وعاد حاجباه ينعقدان بشدة، وهو يُفكّر فى عمق، قبل أن يغمغم، وكأنه يتحدّث مع نفسه :

- عجباً!.. المصريون يتبعون أسلوباً غير تقليدى هذه المرة.. ليس من عادتهم اللجوء إلى العنف، دون مبرّر قوى.

قال أحد الرجال فى اهتمام :

- استعادة عميل خطير، مثل (دافيد شولومون)، هو حتماً مبرّر قوى يا أدون (حونين).

أومأ (حونين) برأسه، مغمغماً :

- بالتأكيد.

ثم تراجع فى مقعده أكثر، وهو يدرس الأمر فى ذهنه مرة..

وثانية..

وثالثة..

ورابعة..

كان عليه حتماً أن يعرف، ما الذى يسعى إليه المصريون بالضبط.

ما الذى يخططون له ؟!..

وما الذى يتوقعونه منه ؟!..

إنهم يريدون عميلهم حتماً..

يريدون استعادته..

وبأى ثمن..

إنهم حتى على استعداد للقيام بعملية انتحارية عنيفة، بالتعاون مع الجناح العسكرى الفلسطينى، لو اقتضى الأمر..

وهذا يعنى أن عميلهم هذا يساوى بالنسبة لهم الكثير..

والكثير جداً..

جداً..

ووفقاً لهذا المعيار، فهو يعنى الأكثر، بالنسبة لهم هم..

للإسرائيليين..

لهذا لابد وأن يحافظوا عليه..

ويضمنون سيطرتهم التامة، على ما فى جعبته من أسرار..

وبأى ثمن أيضا..

ولكن كيف ؟!..

كيف ؟!..

يمكنهم أن يقوموا بتحصين مبنى (الموساد) أكثر وأكثر، ولكن هذا لن يكفى حتماً، إلا لمنع الهجوم العسكرى..

ولكنه لن ينجح فى منع المد القانونى، الذى تمارسه تلك المحامية الأمريكية، شديدة التعاطف مع قضية العرب والفلسطينيين..

ماذا لو أنها نجحت فى استصدار أمر مباشر، بتفتيش المبنى، والسماح لها بمقابلة ذلك العميل بالقوة ؟!..

عندئذ ستنقل إليه الرسالة.

رسالة المصريين الخفية..

وهذا كفيل بإفساد كل شئ..

كل شئ على الإطلاق..

الا إذا..

انهمك فى التفكير مرة أخرى، حتى لم يعد يشعر برجاله، الذين يتطلعون إليه فى ترقُّب واهتمام، حتى اعتدل على مقعده بحركة حادة، وهو يقول بمنتهى الحزم والعزم :

- سنفسد خطة المصريين.

سأله أحدهم بمنتهى الاهتمام :

- وكيف يا أدون (حونين) ؟!

نهض من مقعده، وتحرك فى مقعده بحماس، مجيباً :

- خطتهم كلها تعتمد على وصولهم إلى رجلهم، الذى نحتجزه هنا، لذا فسنتركهم يواصلون خطتهم، أو خططهم، وسنقوم نحن بالخطوة، التى لم يتوقعوها أبداً.

ساله رجل آخر فى لهفة :

- وما هى يا أدون (حونين) ؟!

التقط نفساً عميقاً، وهو يجيب فى صرامة :

- سنمنحهم كل ما يؤكد لهم أن رجلهم هنا.

هتف ثالث :

- ثم ماذا ؟!

أجابه فى سرعة وحزم :

- ثم نقوم بنقله إلى مكان آخر.. بمنتهى السرية، وعبر إجراءات دقيقة، لا يمكن أن تثير لديهم ذرة واحدة من الشك.

ثم تراقص شبح ابتسامة، على ركن شفتيه القاسيتين، وهو يضيف بكل الصرامة، مع لمحة من المقت:

- ولنر لحظتها وجه المحامية، عندما تحضر أمر التفتيش.

وعلى الرغم منه، وبخلاف عادته، انطلقت من حلقه ضحكة..

ضحكة شامتة..

ساخرة..

واثقة..

وشرسة..

للغاية..

* * *

ارتسمت ابتسامة كبيرة، على شفتى (غسان)، قائد مجموعة الاتصال الفلسطينية، وهو يصافح (فضل)، فى مقر سرى، فى قلب (تل أبيب)، وقال فى قوة وتراحب :

- حمداً لله على سلامتك أيها الملازم.. من المدهش والمثير للإعجاب، أن تصل فى الموعد المتفق عليه بالضبط، على الرغم من المخاطر الشتى، التى واجهتها حتماً، منذ هبوطك فى (سيناء).

أجابه (فضل)، فى هدوء وحزم، وهو يتخذ أقرب مقعد إليه، ليريح فوقه جسده المكدود :

- لقد اعتدت تلك المخاطر، منذ فترة حرب الاستنزاف.

ربّت (غسان) على كتفه، قائلاً فى إعجاب :

- أنا واثق من هذا يا بطل.

تنهَّد (فضل)، وهو يومئ برأسه مجاملاً، فجلس (غسان) إلى جواره، وهو يسأله :

- بم ينبغى أن أخاطبك ؟!

أجابه الشاب فى هدوء :

- (فضل).. هذا هو الاسم، الذى أتخذه فى هذه العملية.

سأله (غسان)، بابتسامة كبيرة :

- وماذا لو أننى أفضّل الأسماء الحقيقية ؟!

صمت الشاب بضع لحظات، ثم أجاب فى حزم صارم :

- إنها لن تصنع فارقا كبيرا.

تطلّع إليه (غسان) بضع لحظات، فى صمت تام، ثم لم يلبث أن ربّت على ظهره، قائلاً :

- بالتأكيد.

ثم نهض، متسائلاً فى اهتمام :

- هل تم تحديد ساعة الصفر ؟!

هزّ الشاب رأسه نفيا فى بطء، مجيبا :

- ليس بعد.

ابتسم (غسان)، فى جذل واضح، وهو يقول :

- كم أعشق هذه المهمة.. الهجوم على أولئك المحتلين، كان، وما زال، وسيظل يملأ نفسى بالبهجة دوما.

تمتم الشاب :

- هذا أمر طبيعى.

ثم تراجع برأسه، وبدا صوته ناعسا كملامحه، وهو يضيف:

- وأتعشّم أن يتم هذا بسرعة، وإلا فستحين ساعة الصفر، وأنا فاقد الوعى، من شدة الإرهاق.

أزاح (غسان) سلاحه جانبا، وهو يشير إلى أريكة قريبة، قائلاً :

- ليس هناك ما يحتم هذا.. يمكنك أن تستلقى هنا بعض الوقت، و...

ولم يتم عبارته، وإنما ارتسمت على شفتيه ابتسامة إعجاب كبيرة مشفقة، فقد أدرك أن ملازم القوات الخاصة المصرى لم يعد يسمعه..

لقد غرق فى سبات..

سبات عميق..

* * *

شمل التوتر (دافيد شولومون)، أو المصرى (وليد)، على نحو لم يحدث

من قبل، منذ وقع فى قبضة الإسرائيليين، مع الإجراءات المشدّدة، التى أحاطوه بها، خلال الساعة الأخيرة، والتى توحى بأنه سيتم نقله إلى مكان آخر..

وبكل توتره الطبيعى، تساءل :

- ما الذى تنوون فعله بى بالضبط ؟!

أجابه الجندى الإسرائيلى، الذى يحيط معصميه بالأغلال المعدنية الثقيلة:

- اصمت.

ولكن (دافيد) سأله فى عصبية :

- أليس من الطبيعى أن...

قاطعه صوت (حونين) القاسى هذه المرة، وهو يقول فى صرامة :

- ألم يأمرك أن تصمت ؟!

زفر (دافيد) فى توتر، فى نفس الوقت الذى تقدم فيه (حونين) داخل زنزانته، وهو يقول، بنفس الصرامة القاسية:

- ما دمت بين أصابعنا، فليس أمامك سوى الصمت والطاعة فقط، وإلا..

ازدرد (دافيد) لعابه، قائلاً :

- وإلا ماذا ؟!

مال (حونين) نحوه، حتى ارتطمت أنفاسه الكريهة بوجهه، وهو يقول :

- وإلا فسأجبرك عليهما، برصاصة واحدة بين عينيك، لن تكلفنى سوى (شيكل) إسرائيلى واحد، وهو فى رأيى، يفوق كثيراً قيمتك الفعلية.

قال (دافيد) فى تحد :

- ما دمت لا أساوى شيكلاً إسرائيليا واحدا، فلماذا تبذلون كل هذا الجهد لاستجوابى، وإبقائى هنا؟!

قال (حونين)، فى قسوة أكثر :

- ربما لأن اللعبة تروق لى، أو أن...

قبل أن يتم (حونين) حديثه، اندفع نحوه رجل من رجاله، ومال يهمس على أذنه بعبارة ما..

ومع العبارة، تألقت عينا (حونين) بشدة، وحملتا ظفراً واضحا، اشترك مع صوته الصارم، وهو يقول :

- عظيم... عظيم..

تراجع الرجل فى حركة سريعة، وكأنما انتهت مهمته، فى حين مال (حونين) نحو (دافيد) أكثر، وهو يقول، بكل صرامة الدنيا:

- من الواضح أن المصريين، الذين تستند إليهم، ليسوا بالبراعة التى

تتصوّرها، فقد انكشف أمرهم، بوساطة عميل لنا بين صفوفهم، وعلمنا متى وأين سيتم الهجوم، الذى يخططون لاستعدتك به.

ثم اعتدل، مع امتقاع وجه (دافيد)، وتابع فى ظفر تام :

- وهذا يعنى أن خطتهم قد فشلت.. فشلت تماماً..

وازداد امتقاع وجه (دافيد)..

بشدة.

* * *

٦ - الحسم..

ارتشف اللواء رشفة هادئة، من قدح الشاى الساخن، قبل أن يعيده إلى المنضدة الأنيقة، فى حديقة الفيلا الصغيرة، قائلاً:

- من الواضح أن الإسرائيليين يجيدون قواعد اللعبة، أيها العميد.

ابتسم العميد ابتسامة هادئة، واسترخى إلى حد ما، فى مقعده المتحرّك، وهو يقول :

- نحن أيضا نجيدها يا سيادة اللواء.

قال اللواء، فى سرعة وحزم :

- بالتأكيد.

بدا العميد أكثر هدوءاً، وهو يحرّك إحدى قطع الشطرنج، على الرقعة أمامه، قائلاً :

- وفى بعض الأحيان، تكون براعة الخصم وإجادته للعبة، هى السبيل إلى هزيمته.

بدت الدهشة على وجه اللواء، وهمّ بقول شئ ما، ولكن العميد تابع بنفس الهدوء، وإن أضيفت إلى لهجته نبرة حازمة:

- إذا ما أحسنت استغلال هذا.

التقى حاجبا اللواء، وهو يقول فى اهتمام :

- هل يمكنك الإفصاح أكثر ؟!

ابتسم العميد ابتسامة هادئة، وقال :

- بالطبع؛ فالأمر كله يتعلق بالقواعد... نحن نتبعها، وهم أيضا يتبعونها، ومن المؤكد أنها تصلح دوما، لمواجهة معظم الظروف والتغيرات، إلا أنها تنطوى أيضا على موطن خطير رهيب.

تساءل اللواء، وهو يعتدل فى مقعده باهتمام شديد :

- وهو ؟!

أجابه العميد فى استرخاء :

- أن التزامك بها، يمنح الخصم دوما فرصة تحديد موقعك، واستنباط خطواتك القادمة، باعتبار أن كليكما يستخدم القواعد نفسها، فى علم الجاسوسية.

ثم مال إلى الأمام فجأة، مضيفا فى حزم :

- لذا، فمن الضرورى، بل من المحتم أن تكسر هذه القواعد ذات مرة، لتربك خصمك، وتثير حيرته، وتدفعه إلى التخبُّط، واتخاذ قرارات متسرِّعة، تفتقر إلى الحكمة والتروِّى.

ثم عاد يتراجع على مقعده المتحرك، مكملاً :

- خاصة لو أنك تستعين بمجموعة من المتخصصين، كما نفعل فى هذه العملية.

أشار إليه اللواء، قائلاً :

- أنت قمت باختيارهم بنفسك، من وسط المجموعة.

أومأ العميد برأسه إيجابا، وقال :

- هذا صحيح.. ولقد أحسنت اختيارهم بمنتهى الدقة، فرقم (عشرة) (شوكت)، من أم تركية، منحته فيما منحته، لغة بلدها الأم وملامحه، وجنسيته أيضا، وهذا هو الأهم، إذ أنه استطاع دخول (إسرائيل) فى سهولة، باعتباره تركيا، وليس مصريا.

قال اللواء فى اهتمام :

- ولم يكن باستطاعتهم كشف أمره أبدا، لولا أن قدتهم أنت إليه.

أشار العميد بسبّابته، قائلاً :

- بالضبط.

لوّح اللواء بيده، وهو يقول :

- أعترف أن هذا قد أثار حيرتنا وقلقنا فى البداية.

قال العميد فى هدوء :

- وهذا المفترض حدوثه بالضبط، بالنسبة للإسرائيليين أيضاً، والذين سيحيطون (شوكت) برقابتهم طوال الوقت، وينشغلون به كثيراً، وبخاصة عندما يضع تلك الرسالة المشفرة، فى النقطة الميتة، فى قلب (تل أبيب).

تساءل اللواء :

- ولكنك استخدمت فى الرسالة شفرة قديمة، نعلم أن الإسرائيليين قد كشفوا أمرها منذ زمن.

رفع العميد حاجبيه وخفضهما، قائلاً :

- ولكنهم لا يعلمون أننا نعلم هذا.

صمت اللواء لحظة، قبل أن يبتسم فى إعجاب، قائلاً :

- آه.. إذن فهم سيكشفون الرسالة، ويتمكنون من ترجمتها، متصورين أنهم قد حققوا انتصاراً بهذا، فى حين أننا نعلم منذ البداية أنهم سيفعلون.

أشار العميد بسبَّابته مرة أخرى، وهو يقول فى حزم :

- بالضبط.

تنهَّد اللواء، فى ارتياح وإعجاب، وهو يتراجع فى مقعده، متسائلاً :

- ولكنك واثق من أنهم لن يلقوا القبض على (شوكت).

هزَّ العميد رأسه، مجيباً :

- لعبة الجاسوسية تختلف تماما عن لعبة الأمن يا سيادة اللواء، فالأمن العادى يمكنه إلغاء القبض على المشتبه فيه، واستجوابه، وربما إجباره على الاعتراف بما لديه أيضاً، ولكن أجهزة المخابرات تحتاج الى الدليل أولاً، وإلا لتسببت فى أزمات دولية بلا حدود، لأن خصمها يتبع فى المعتاد دولة أخرى.

قال اللواء فى حزم :

- هذا لم ينطبق على حالة (دافيد شولومون).. أقصد (وليد).

أجابه العميد :

- الإسرائيليون ألقوا القبض على (وليد)، باعتباره المواطن الإسرائيلى (دافيد شولومون)، وهنا يمكنهم التعامل معه بأسلوب أجهزة الأمن الداخلية، أما (شوكت) فمواطن أجنبى، من رعايا دولة أخرى، والأمر هنا يختلف.

عاد اللواء يبتسم، وهو يقول :

- وهذا ينطبق على (هناء) أيضا.. أليس كذلك ؟!

أجابه العميد فى سرعة :

- (هناء) مصرية خالصة، من أبوين وجدين مصريين، ولكن هذا لم يمنعنا من زرعها فى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، باعتبارها مهاجرة كوبية، لتحصل هناك على الجنسية الأمريكية، وتتخرَّج بامتياز من كلية

الحقوق بجامعة (هارفارد)، أرقى الجامعات العالمية فى هذا المضمار؛ لتصبح متخصصة فى القانون الدولى؛ حتى يمكنها القيام بدورها، فى خدمة وطنها، عندما تحتم عليها الظروف تلبية ندائه.

قال اللواء فى اهتمام :

- إذن فقد اخترت متخصصا فى عالم الجاسوسية، وأخرى فى عالم القانون الدولى والمحاماة.

أشار العميد بثلاث من أصابعه، قائلاً :

- بل اخترت ثلاثة متخصصين هذه المرة يا سيادة اللواء.

ابتسم اللواء، قائلاً :

- آه.. بالطبع.. لقد نسيت ذكر الملازم أوّل (رأفت).

ثم مال نحوه، يسأله فى اهتمام :

- متى يحين دوره فى رأيك ؟!

رفع العميد سبّابته وابهامه إلى ذقنه، وراح يداعبها فى رفق، وهو يقول، وكأنه يحدث نفسه :

- لو سارت الأمور كما أتوقع، وأخذ كل شئ وقته الطبيعى، فسوف..

قاطعه اللواء فى حزم :

- متى أيها العميد ؟!

صمت العميد بضع لحظات، قبل أن يجيب بمنتهى الحزم :

- الليلة.

وكانت مفاجأة..

* * *

فجأة، وكما كان يحدث، فى عمليات حرب الاستنزاف، استعاد (رأفت)، أو (فضل) نشاطه بغتة، وفتح عينيه، وهو يعتدل على مقعده، متسائلاً فى حزم وحيوية :

- كم الساعة الآن ؟!

فوجئ بالفلسطينى (غسان) أمامه، يتراجع فى دهشة، قائلاً :

- عجبا!.. كنت أهم بإيقاظك بالفعل.

كرّر (رأفت) تساؤله، وهو ينهض ملتقطاً مسدسه، الذى منحه إياه الفلسطينى نفسه، فور التقائهما :

- كم الساعة ؟!

رفع (غسان) ساعته أمامه، مجيبا :

- السابعة.. لقد وصلتنا آخر المعلومات، وسنقوم بتنفيذ الخطة (أ) على الفور.

قالها، وهو يناول (رأفت) ورقة، التقطها الشاب فى سرعة، والتهم

كلماتها بكل جوارحه، قبل أن يقول فى حزم:

- على بركة الله.

ثم رفع عينيه إلى (غسان)، مكملاً :

- هل تم إبلاغ الأمر للآخرين ؟!

هزّ (غسان) رأسه نفيا، وقال :

- إنها مهمة (القاهرة).

صمت (رأفت) بضع لحظات، قبل أن يقول :

- بالتأكيد.

نطقها، وهو يراجع الجزء الخاص به من الخطة مرة..

وثانية..

وثالثة..

كان يعلم أنه هناك آخرين، فمن الخطة الشاملة، التى يتولى جانبا منها، ويعلم أيضا أنه لا ينبغى له أن يعرف كافة التفاصيل الأخرى؛ لحماية العملية نفسها؛ وحتى لا يكون لديه ما يفصح عنه، لو وقع فى قبضة الإسرائيليين، واستخدموا معه وسائل تعذيبهم البشعة، أو وسائل كيميائية أو تكنولوجية أخرى..

وكان عليه أن يؤدى الجزء الخاص به بمنتهى الدقة..

والكفاءة..

والإحكام..

هذا فقط كل ما يعنيه..

فى تلك اللحظة على الأقل..

وبكل ما يجيش به صدره من انفعالات، التقط (رأفت) نفسا عميقا، ثم اتجه نحو خريطة كبيرة لمدينة (تل أبيب)، علقها (غسان) على جدار حجرته، وسأله :

- هل وصلت معلومات كافية؟!.. أعنى عن عددهم، وخطوط سيرهم، و...

قاطعه (غسان) فى حزم :

- لدينا كل المعلومات المطلوبة.. بعضها أبلغنا به مصدرنا لديهم، والبعض الآخر أبرقت به (القاهرة).

ثم ربّت على كتفه، مستطردا بابتسامة واثقة :

- اطمئن.. نحن نعرف أين سنجدهم بالضبط.

تطلع (رأفت) إلى عينيه مباشرة، وهو يقول :

- موقع العدو لم يكن أبدا مشكلة، فكثيرا ما تعرف أين هو بالضبط، ولكنك لا تدرى كيف توجّه إليه ضربتك القاصمة؟!... ومتى؟!

أومأ (غسان) برأسه إيجابا، وقال :

- أنت على حق.

تابع (رأفت) فى حزم :

- ثم أنك تثق دوما فى مصادرك لديه، ولكن عليك أن تفترض أيضا أن له مصادره عندك.

صمت (غسان) بضع لحظات، قبل أن يقول فى بطء :

- ربما لا يفاجئنى هذا.

ثم مال نحو (رأفت)، مستطردا فى حزم :

- ولكن هذا لن يمنعنى من تنفيذ الخطة؛ فأنا أعتبر أن كل ضربة يتلقاها العدو الاسرائيلى، هى خفقة فى قلب الكيان الفلسطينى كله.

التقط (رأفت) نفسا عميقا آخر، قبل أن يقول بكل الحزم والحسم :

- بل الكيان العربى كله يا صديقى.

ربّت كلاهما على كتف الآخر فى حزم وحرارة، بعد العبارة الأخيرة، ثم استدارا معا إلى الخريطة مرة أخرى، لمراجعة الخطة للمرة الأخيرة..

وبكل التفاصيل..

* * *

انعقد حاجبا (حونين) فى صرامة، وهو يعقد كفيه خلف ظهره، متابعا عملية نقل (وليد) إلى سيارة مصفحة خاصة، تابعة للمخابرات الإسرائيلية، وهذا الأخير يقول فى توتر :

- إلى أين سنذهب بالضبط؟!.. ماذا ستفعلون بى؟!.. إننى أحتج.. المفترض قانونا أن..

قاطعه (حونين)، فى صرامة بالغة :

- اصمت.

ثم أشار إلى أحد رجاله، قائلا فى لهجة آمرة قاسية :

- سيجلس بينى وبينك، فى المقعد الخلفى يا (إيتان)، وسيجلس (كاهان) مع مدفعه الآلى القصير، فى المقعد الأمامى، وعليك أن تخفى مدفعك، بحيث لا يلحظه المارة أبدا يا (كاهان)، وسنسدل نحن الستائر الخلفية، فى حين يقود (موشى) السيارة... سنتخذ طريق (بن جوريون)، ونشق طريقنا فى هدوء، عبر خطوط السير العادية؛ حتى لا ينتبه إلينا أحد.

تردّد (إيتان) لحظة، قبل أن يقول فى حذر :

- معذرة يا أدون (حونين)، ولكن أليس من المجازفة أن ننقل أسيرا بهذه الأهمية، دون حراسة كافية، وبوساطة سيارة واحدة؟!

رمقه (حونين) بنظرة قاسية، قبل أن يجيب فى صرامة :

- سيارة مصفحة، وليس سيارة عادية يا رجل.. سيارة يمكنها احتمال انفجار قنبلة، دون أن يُخدش جسمها أو زجاجها.

تراجع (إيتان)، مغمغماً فى ارتباك :

- معذرة يا أدون (حونين)، لم أقصد أن...

قاطعه (حونين)، وهو يتابع بنفس الصرامة :

- وحتى لو هاجموا السيارة، وأمطروها برصاصاتهم وقنابلهم، وهذا أمر مستبعد تماماً، وفقاً لمعلوماتنا، التى تؤكّد أنهم سيشنون هجومهم على مقرنا، بعد ساعة واحدة، فلن يمكنهم أبداً إجبارنا على مغادرتها، بل سيمكننا أن نتحصن داخلها، حتى تصل الإمدادات.

ثم شدّ قامته فى تعال، مستطرداً فى حزم :

- اطمئن يا رجل.. لن ينجح المصريون فى لعبتهم أبداً.. بل ولن يخطر ببالهم لحظة واحدة، أن سيارة عادية، تجوب شوارع (تل أبيب)، فى مسيرة هادئة، يمكن أن تضمّ ذلك الصيد، الذى يسعون خلفه باستماتة.. لن يخطر هذا ببالهم أبداً.

بدا الارتياح على وجه (إيتان)، وهو يدفع (وليد) داخل السيارة المصفحة، قائلاً :

- بالطبع يا أدون (حونين).. بالطبع.

استقل الجميع السيارة، بالترتيب الذى قرّره (حونين)، وانطلق بها (موشى) عبر بوّابة الخروج المعتادة، واسترخى (حونين) داخلها تماماً، أو أنه قد بذل قصارى جهده ليفعل، والسيارة تشق طريقها فى هدوء، لا يمكن أن يلفت الأنظار، عبر شوارع (تل أبيب)..

وطوال ما يقرب من عشرين دقيقة كاملة، ظلت السيارة تسير فى نسق ثابت، عبر المسار المحدود مسبقاً، إلى أن بلغت أطراف المدينة، حيث يهدأ الزحام، ويقترب المقر الاحتياطى السرى، الذى تقرّر نقل (وليد) إليه..

وعند هذه المرحلة، تنفس (حونين) الصعداء، وأطلق كل التوتر المختزن فى أعماقه، عبر زفرة ملتهبة، قبل أن يعتدل على مقعده، ويقول فى زهو واثق:

- ألم أقل لكم إن خطتى هذه سوف..

وقبل أن يتم عبارته، انطلق صاروخ محمول صغير، من قاذف صاروخى، فوق كتف (غسان)، من أعلى بناية مجاورة، وارتطم بأرضية الطريق، على مسافة نصف المتر فحسب، من السيّارة المصفحة، و...

ودوى الانفجار..

* * *

"هجوم؟!.."

هتف مندوب الاتصال الشاب بالكلمة، بكل دهشة الدنيا، وهو يُحدّق فى

وجه العميد، الذى تراجع فى مقعده بهدوء، قائلاً :

- ما الذى يدهشك إلى هذا الحد ؟!

لثوان، بدا وكأن المندوب الشاب عاجز عن التفوه بحرف واحد، إلا أنه لم يلبث أن استجمع جأشه، وقال فى توتر :

- الواقع أن هذا أمر غير معتاد فى عالمنا يا سيِّدى؛ فقد دربونا على أن المواجهة تكمن دوما فى صراع العقول، وليس فى صراع الأجساد.

أشار العميد بسبّابته، قائلاً :

- ليس بالضرورة.

بدت الحيرة فى عينى المندوب الشاب، فتابع العميد فى حزم:

- فى عالم المخابرات، لا توجد أبدا قواعد ثابتة للعمل؛ بل تتغيّر القواعد دوما، وفقا لمقتضيات الأمور، وهذا أعظم ما فى عملنا.. أن ينطلق عقلك بأقصى طاقاته، دون هدوء أو أسوار واضحة، تحد من انطلاقه، أو تكبح من جماحه.

قال الشاب، ولم تهدأ دهشته بعد :

- أيعنى هذا أنه من الممكن أنتلجأ إلى القوة، فى عمل المخابرات.

أجابه العميد فى حزم :

- يمكنك أن تلجأ إلى كل ما يؤمّن لك النجاح فى مهمتك.

ثم أشار إلى رأسه، مستطرداً :

- على ألا تهمل عقلك أبداً.

تردَّد المندوب الشاب قليلاً، قبل أن يهزّ كتفيه، قائلاً :

- الاستخدام الوحيد للعقل، فى هجوم كهذا، هو التخطيط لفرص نجاحه، ووسائل تنفيذه.

هزّ العميد رأسه فى بطء، قائلاً :

- خطأ.. العقل هو المقاتل رقم واحد، فى هذه العملية كلها، حتى فى هذا الهجوم الحاسم.

وصمت لحظة، قبل أن يميل نحو المندوب الشاب، ويسأله فى اهتمام:

- قل لى : ما أقوى سلاح، تواجه به عدوك؟!

أجاب الشاب فى سرعة، وكأنما يردّد ما يحفظه عن ظهر قلب :

- المعلومات.

تراجع العميد، قائلاً :

- بالضبط.. سلاح المعلومات هو أقوى وأخطر سلاح، تواجه به عدوك، وبراعتك تكمن فى حسن الاستفادة من المعلومات، وتنسيقها، وتحليلها، واستنباط نتائجها، و...

صمت لحظة أخرى، قبل أن يضيف فى لهجة ذات مغزى :

- وتوجيهها أيضا.

ردّد الشاب، فى شئ من الدهشة :

- توجيهها.

أجابه العميد فى هدوء :

- بالطبع.. ففى عمليتنا هذه، اعتمد العدو أيضا على جمع المعلومات، من مصادرها المختلفة، وتحليلها، واستنتاج خطواتنا التالية منها، لذا كانت أهم خطواتنا، هى دس معلومات زائفة فى طريقه، بوسائل تبدو طبيعية ومؤكدة تماما، ومن خلال جواسيس يثق تماما فى ولائهم له، ويثقون هم ايا فى صحة ما يبلغونه به، دون أن يخطر ببالهم، أو بباله، أننا نتلاعب بهم وبه، ونوجههم إلى حيث نريد.

بدا الانبهار الشديد على وجه الشاب، والعميد يتابع بنفس الهدوء :

- فعبر كل مصادره، تأكّد العدو أن هناك خطة عسكرية، لإخراج رجلنا من مقره الرئيسى، ولقد كانت تلك الرسالة المشفرة، التى تركها (شوكت) فى النقطة الميتة، هى أكبر فخ، دفعه إلى تصديق تلك المعلومات، والتيقين من أنها صحيحة تماما، ومع الضغط الإضافى، الذى مارسته (هناء)، عبر النظم القانونية الإسرائيلية، لم يعد أمامه سوى سبيل واحد، وهو إخراج (وليد) من المقر، ونقله إلى المقر السرى الاحتياطى، الذى نعرف موقعه بالضبط.. وحتى يتقن اللعبة، كان من المحتم ألا يعلن عن هذا بصورة سافرة، لذا فقد استخدم سيارة مصفحة واحدة، لنقله على نحو سرى، عبر

شوارع (تل أبيب)، وهنا يجئ دور (رأفت)، بخبراته التى اكتسبها من قوات الصاعقة، مع مجموعة الاتصال الفلسطينية المتعاونة، لتوجيه الضربة القاصمة للعدو، من حيث لا يتوقع، وفى الموقع الذى يختارونه بأنفسهم.

واصل الشاب نظرته المبهورة لبضع لحظات، قبل أن يهزّ رأسه، وكأنما ينفض عن نفسه هذا الشعور، ويقول فى انفعال، لم يستطع، أو يحاول كتمانه :

- ما زالت هناك ثغرة كبيرة، فى هذه الخطة كلها.

اعتدل العميد، يسأله فى اهتمام :

- أين ؟!

أجابه بسرعة :

- السيارة المصفحة.. معلوماتنا تقول : إن الإسرائيليين يستخدمون سيارات مصفحة، يصعب اختراقها بالرصاص أو القنابل، فكيف سيتمكّن الملازم (رأفت) من الفوز بصيده، من داخل سيارة كهذه ؟!.

بدت ابتسامة باهتة، على ركن شفتى العميد، وهو يقول :

- لقد درست هذا الأمر جيدا، وأنا اضع خطتى، حتى أننى قد استعنت بتصميمات تلك السيارة المصفحة، التى نستخدم نحن أيضا مثلها، فى بعض عملياتنا الخاصة، وقضيت ليلة كاملة فى فحصها، قبل أن أتيقن من أنه لا

يوجد سبيل معروف لاقتحامها؛ فحتى إطاراتها، مصنوعة من مطاط قوى، لا تكفى الرصاصات نفسها لاختراقه.

تراجع المندوب الشاب فى مقعده، وبدا محبطاً بعض الشىء، وهو يقول :

- ألم أقل لك يا سيادة العميد ؟!

استدرك العميد بسرعة، وهو يشير بسبّابته فى حزم :

- قلت : إنه لا يوجد سبيل معروف لاقتحامها، ولكننى لم أقل أبدا أن هذا مستحيل !

هتف الشاب، وقد استعاد انبهاره كله :

- اتعنى أنه يوجد سبيل إلى ذلك بالفعل، يا سيادة العميد ؟!

أجابه العميد، فى حزم وهدوء :

- بالتأكيد.

سأله الشاب، بكل لهفة الدنيا :

- وما هو بالضبط ؟!

اتسعت ابتسامة العميد، وهو يسترخى فى مقعده، قائلاً :

- خمن.

قالها بلهجة تحمل الغموض..

كل الغموض.

* * *

٧ - النيران..

على الرغم منه، ارتسمت ابتسامة واسعة، على شفتى ضابط الجوازات الإسرائيلى، وهو يراجع جوازىَ الشابين الواقفين أمامه، قائلاً:

- إذن فقد ربطتكما قصة الحب هنا.. على أرض (إسرائيل).

تأبّطت الشابة ذراع الشاب فى هيام واضح، وهى تقول :

- لم نتصوّر هذا قط.. بل ولم يعرف أحدنا الآخر شخصياً، إلا منذ يومين فحسب.

ربّت الشاب على يدها المعلقة بذراعه، قائلاً فى سعادة، بدا وكأنه يرغب فى إعلانها للجميع :

- إننا نتبادل الرسائل والآراء، وبطاقات التهنئة بالطبع، منذ ما يقرب من العام، حتى اتفقنا على أن نلتقى هنا، فى قلب (إسرائيل)، فى إجازتنا المشتركة، ولم نكن نلتقى، حتى تحوّلت صداقتنا إلى حب جارف.

هتفت الشابة فى مرح :

- ومن النظرة الأولى.

ربّت الشاب على يدها مرة أخرى، قائلاً :

- نعم.. من النظرة الأولى.

اتسعت ابتسامة ضابط الجوازات الإسرائيلى أكثر، أمام المشهد الجميل، وقال فى حماس :

- ما دمتما قد ارتبطما هنا، فلِمَ لا تعقدان خطبتكما فى (إسرائيل) أيضا؟!.. أنا واثق من أن الجميع هنا سيسعون لمساعدتكما.. بل وربما تحصلان على دعم وسائل الإعلام أيضا، إذا ما عرفت قصتكما.

ثم غمز بعينه، مضيفا:

- فى هذا دعاية لـ(إسرائيل) أيضا.

هتف الشاب، فى حماس مماثل :

- فكرة رائعة.

ولكن الشابة اعترضت، قائلة :

- ليس قبل أن تلتقى بوالدىّ فى (باريس) كما اتفقنا.

منحها الشاب ابتسامة عذبة، قائلاً :

- فليكن يا عزيزتى.. سنلقاهما هناك، ثم نعود لإقامة حفل خطبتنا هنا.

أراحت رأسها على كتفه، قائلة بنفس الهيام :

- أحبك.

لم يدر الضابط الإسرائيلى كيف يمكن أن يبتسم، بأكثر مما يفعل، إلا أنه كتم تأثره، وأعاد إليهما جوازى سفرهما، بعد ختمهما بخاتم المغادرة، قائلاً:

- سننتظر عودتكما إلينا.

غمغمت الشابة :

- بالتأكيد.

واتجهت مع الشاب إلى بوّابة السفر، ورأسها ما زال يستريح على كتفه، فتنهّد الإسرائيلى فى حرارة، والتفت إلى زميله، قائلاً، بنفس الابتسامة الواسعة الكبيرة :

- ليس فى كل يوم نلتقى بقصة حب كهذه.

فى نفس اللحظة، التى نطق فيها عبارته، كان الشاب يهمس فى أذن الشابة، فى هدوء ظافر :

- لم يكن خداعهم بالأمر العسير.. تماما كما تنبأ سيادة العميد.

همست الشابة بدورها :

- إنه عبقرى.. هذه أسرع وأنجح عملية قمنا بها.. أراهن أن الإسرائيليين سيمزقون أنفسهم إربا، عندما يدركون أننا قد غادرنا بهذه السرعة.

ابتسم الشاب، وهمس بدوره :

- هذا عندما يكشفون رحيلنا، فمن المؤكّد أن رجالهم ما زالوا يراقبون فندقينا، فى انتظار خروج (شوكت) و(اليانا).

كتمت ضحكتها فى صعوبة، وهى تهمس :

- كان ينبغى لهم استخدام أطقم مراقبة أفضل؛ فخداع أطقم مراقبتهم الحالية، كان هينا للغاية.

صمت الشاب لحظة، ثم همس :

- دعينا نعترف بأن أطقم المراقبة كانت جيّدة.

وابتسم مستطردا :

- ولكننا أيضا كنا بارعين فى الإفلات منها.

قالت فى هدوء :

- هذا أمر طبيعى، فنحن لسنا أفرادا عاديين..

وصمتت لحظة، ثم نطقا معا، فى آن واحد :

- إننا متخصصون.

وانطلقت منهما معا ضحكة..

ضحكة واثقة ظافرة.. ومصرية ..

فى قلب (إسرائيل)..

* * *

من المؤكّد أن انفجار ذلك الصاروخ، أمام السيارة المصفّحة تماما، كان مباغتا إلى حد مدهش، حتى أن أجساد الجميع داخلها قد انتفضت فى عنف، قبل أن يهتف (حونين)، فى غضب امتزج بالذعر والدهشة :

- هجوم.. لقد خدعونا.

لم يكد هتافه يكتمل، حتى دوى انفجاران أخران..

وبمنتهى العنف..

صاروخ ثان، انفجر خلف السيارة تماما..

وعبوة نافسة قوية، انفجرت أسفلها..

ومع انفجار العبوة الناسفة، ارتفعت السيارة لمترين كاملين إلى أعلى، ثم ارتطمت بالأرض فى عنف، و(إيتان) يصرخ :

- إنه فخ يا أدون (حونين).. فخ قاتل.

صاح (حونين) برجله (موشى) فى حدة :

- هيا.. انطلق.. ماذا تنتظر؟!.. انطلق.

صاح (موشى)، وهو يضغط دوّاسة الوقود بكل قوته :

- لا سبيل إلى هذا.. لقد زرعوا عبواتهم الناسفة، فى مواضع مدروسة بدقة، حتى أن إطارات السيارة تغوص الآن، فى حفرتين كبيرتين فى الطريق، ولا يمكنها الخروج منهما.

صرخ (حونين) :

- اطلب النجدة والإمدادات إذن.

مع قوله، انفجر صاروخ ثالث، فى الزجاج المصفّح الأمامى للسيارة، فتشقّق على نحو عنيف، وانطلقت عبره بعض الشروخ العميقة، إلا أنه ظل متماسكاً، و(كاهان) يهتف :

- إنهم يمطرون السيارة بصواريخهم.

صاح (حونين)، وهو ينتزع مسدسه فى غضب :

- السيارة ستصمد، حتى تصلنا الإمدادات.. لن يمكنهم الوصول إلينا داخلها أبداً.

قال (وليد) فى انفعال :

- ربما لا يخططون لهذا على الإطلاق.

استدار إليه (حونين) بحركة حادة، فتابع بنفس الانفعال، الذى حوى لمحة من الظفر والارتياح :

- بل العكس تماما.

لم يفهم (حونين) ما الذى يعنيه هذا بالضبط، إلا أنه ألصق فوهة مسدسه بصدغه، هاتفاً فى شراسة :

- مهما فعلوا، فثق فى أنهم لن يظفروا بك... أبدا.

فى نفس اللحظة، التى نطق فيها عبارته، كان (غسان) يقول للملازم (رأفت) فى حماس :

- لقد وجهنا ضرباتنا إلى حيث تضمّنت خطتكم.. والآن ماذا؟!.. إنها سيارة مصفحة قوية، وصاروخنا تمكّن بالكاد من خدش زجاجها الأمامى، وصنع فيه بعض الشقوق فحسب.. هل نطلق صاروخا آخر؟!

هزّ (رأفت) رأسه، قائلاً فى حزم :

- الصاروخ الآخر لن يصنع أكثر مما صنعه الأوّل، فزجاج السيارة مكوّن من سبع طبقات، لن تنهار أبداً.

ثم أخرج عبوتين كبيرتين من جعبته، مضيفاً :

- أما شقوقه، فهى كل ما نسعى إليه.

هتف به (غسان) فى قلق، وهو يراقب عقارب ساعته، التى تشير إلى أن الوقت يمضى أسرع مما ينبغى :

- وبم يمكن أن تفيدك؟!

أجابه (رأفت)، وهو يثب من مكانه، بخفة ورشاقة فهد جبلى قوى :

- ستخل بالتوازن الحرارى الداخلى للسيارة.

واستقر جسده على سقف السيارة المصفحة، وهو يضيف فى حزم :

- وهذا يكفى.

سرى توتر عنيف، فى أجساد ركاب السيارة المصفحة، مع وقع قدميه فوق سقفها، وهتف (حونين) فى عصبية:

- ماذا يفعلون؟!.. ماذا يفعلون؟!

مع قوله، وثب (رافت) إلى جوار السيارة، وبدا وجهه واضحا لركابها، الذين حدقوا فيه جميعهم، فى دهشة تحمل لمحة من الذعر، باستثناء (وليد)، الذى خفق قلبه فى عنف، وهو يغمغم، بصوت لم يسمعه سواه :

- إنهم هم.

وقبل حتى أن تكتمل غمغمته، كان (رافت) يلقى العبوتين اللتين يحملهما، أسفل وأعلى السيارة، فى آن واحد، ثم يعدو مبتعدا، ويلقى جسده أرضا، عند ركن الشارع..

وفى ارتياع شديد، هتف (كاهان) :

- عبوتان ناسفتان أخريان.

فصاح به (حونين)، فى غضب صارم :

- السيارة ستصمد.

مع صيحته، انفجرت العبوتان..

ولكن انفجارهما كان هذه المرة يختلف..

يختلف تماما..

فمع الانفجار، تغطى جسم السيارة، من أعلى وأسفل بمادة جيلاتينية سميكة..

ثم اشتعلت فيها النيران دفعة واحدة..

نيران عنيفة، رهيبة، أحاطت بالسيارة كلها، على نحو مخيف، جعل سائقها (موشى) يهتف :

- رباه!.. إنهم يخططون لشينا أحياء.

انعقد حاجبا (حونين) فى شدة، وقد تضاعف غضبه إلى أقصى حد، حتى أنه أزاح جانبا كل المشاعر والانفعالات الأخرى..

وبمنتهى العنف..

فباستثناء (وليد)، كان هو الإسرائيلى الوحيد، الذى أدرك ما يحدث بالضبط..

لقد خدعه المصريون، ودفعوه إلى إخراج أسيره من مقر (الموساد)، إلى حيث يمكنهم مهاجمته بيسر..

وبقوة..

وها هم أولاء قد وجدوا فكرة عبقرية، لإجباره على تسليمه لهم، على الرغم من وجوده داخل سيارة مصفحة أمنية إسرائيلية قوية..

فبوسيلة ما، أدركوا نقطة ضعف السيارة..

النيران ...

صواريخهم صنعت تلك الشروخ، التى أخلت بتوازن مكيفات الحرارة داخل السيارة، ثم وضعوها فى قلب آتون من اللهب..

وفى غياب التوازن الحرارى، سترتفع الحرارة داخل السيارة بسرعة..

سترتفع..

وترتفع..

وترتفع..

وعند لحظة ما، لن تتأخر طويلاً، ستضطرهم الحرارة للخروج من السيارة المصفحة حتما..

وعندئذ يربح المصريون المعركة..

وبجدارة..

امتلأت نفسه بغضب هادر، عند هذه النقطة، وخاصة عند هتف (كاهان)، فى لهجة أقرب إلى الانهيار :

- لابد وأن نخرج من السيارة، قبل أن نتحول داخلها إلى كتل من اللحم المشوى.

عندئذ، انعقد حاجباه (حونين) فى شدة، وجذب إبرة مسدسه، هاتفا:

- لن ينتصر المصريون.. حتى على جثتى.

وانتفض قلب (وليد) بين ضلوعه، عندما شاهد تلك النظرة، المطلة من عينى (حونين)، الذى ألصق فوهة المسدس بصدغه أكثر..

نظرة وحشية، تحمل حكما بالإعدام الفورى..

إعدامه..

* * *

"وماذا لو أنهم قرّروا التخلص من الأسير؟!.."..

نطق مندوب الاتصال الشاب بالعبارة فى قلق شديد، وهو يجلس أمام العميد، فى فيلته الصغيرة، قبل أن يضيف، فى شئ من العصبية :

- معذرة يا سيادة العميد، ولكننى أظن، أننى لو كنت فى موضعهم، لفضّلت التخلص منه، على تسليمه للمصريين.

قال العميد فى حزم :

- لا يمكنك أن تكون فى موضعهم.

وصمت لحظة، تطلّع خلالها إلى رقعة الشطرنج، قبل أن يعود ببصره إلى المندوب الشاب، مضيفا :

- ولا يمكنهم أن يكونوا فى موضعك.

بدا من الواضح أن المندوب الشاب قد شعر بالحيرة والتساؤل، فتابع العميد فى هدوء رصين :

- هل تعلم، ما الفارق الرئيسى، بيننا وبين الإسرائيليين؟!

لم يجب المندوب الشاب، وكأنه ينتظر الجواب، فتابع العميد فى حزم أكثر :

- أيديولوجية التفكير الأساسى.

تضاعفت الحيرة، فى ملامح المندوب الشاب، فتراجع العميد فى مقعده المتحرك بغاية الهدوء، متابعاً فى حزم :

- فارق ضخم، بين أن تحارب فى سبيل احتلال أرض الغير بالقوة، أو فى سبيل مبدأ تؤمن به، بكل ذرة من كيانك؛ ففى الحالة الأولى، ستتركز أهدافك الأساسية على أن تنتصر، وتحيا للاستمتاع بالأرض، التى قاتلت لاحتلالها، أما فى الحالة الثانية، فالحياة تهون وترخص، أمام الهدف الأسمى والأبقى.

هزّ الشاب رأسه فى توتر، مغمغما :

- معذرة يا سيادة العميد، ولكننى لم أدرك بعد، علاقة هذه الفلسفة، بالموقف الذى نتحدّث عنه!!

ابتسم العميد ابتسامة هادئة، وأشار بيديه، قائلاً :

- دعنا نتصوّر أن الأمور كلها قد سارت كما خططنا لها، وأن الموقف الآن يشبه ما توقعناه بالضبط.

قال المندوب الشاب، فى إعجاب واضح :

- تقصد كما توقعته أنت يا سيادة العميد.

تجاهل العميد ذلك التعليق تماماً، وهو يواصل، بنفس الهدوء الحازم:

- رجال المخابرات الإسرائيلية داخل سيارة مصفحة، مع رجلنا، وسط جحيم من اللهب، ويحيط بهم رجال أشداء، يحملون الأسلحة، ويرغبون فى الحصول على ما لديهم بشدة... أمام الإسرائيليين إذن حلان، لا ثالث لهما.. إما أن يقضوا نحبهم حرقاً، داخل السيارة المصفحة، ويدفعون حياتهم ثمناً لوطنهم، ولمنعنا من الفوز بصيدنا، أو يجازفون بالخروج منها، والقتال من أجل حياتهم.

صمت المندوب الشاب بضع لحظات مفكّراً، قبل أن يقول :

- بل هناك حل ثالث بالتأكيد.

سأله العميد فى اهتمام :

- وما هو ؟!

أجابه فى سرعة، لم تخل من لمحة توتر :

- أن يتخلصوا من الأسير، حتى لا نظفر نحن به، ثم يغادروا السيارة.

صمت العميد بدوره هذه المرة، قبل أن يجيب :

- هذا ما يطلقون عليه اسم (خيار شمشون).

وقبل أن يتساءل المندوب الشاب عما يعنيه هذا، اعتدل العميد على

مقعده المتحرك، وتابع :

- ففى قصص الأزمنة القديمة، وعندما فقد (شمشون) الجبار قوته، بسبب خدعة (دليلة) الشهيرة، ولم يجد أمامه سبيل للانتصار، لجأ إلى خيار أخير، وهو هدم المعبد على رأسه ورءوس الجميع بلا هوادة.

هتف الشاب فى حماس :

- هذا ما أعنيه بالضبط.

مال العميد نحوه، واستعاد ابتسامته، وهو يقول :

- ما زال هذا يعتمد على استعدادك للبذل والعطاء، فى سبيل قضيتك.

تضاعفت حيرة المندوب الشاب ألف مرة، وهو يقول :

- ما زلت عاجزاً عن استيعاب المغزى.

أجابه العميد بمنتهى الحزم :

- انتظر إذن.

ثم تراجع فى مقعده، مضيفاً :

- وسترى..

وكان هذا كل ما يملكه المندوب الشاب بالفعل..

أن ينتظر..

ويرى..

* * *

من المؤكد أن (حونين)، ضابط (الموساد) الإسرائيلى، رجل يجيد عمله إلى حد كبير، ولديه استعداد تام لبذل أى شئ ممكن، فى سبيل النجاح فيه..

وهذا يعنى أنه لن يقبل أبداً بالهزيمة..

أو التراجع..

أو الاستسلام..

لن يقبل إلا بالنصر..

أو التعادل..

على أقل تقدير..

ومن هذا المنطلق، قاده تفكيره إلى أن أفضل ما يمكن أن تنتهى إليه الأمور، فى مثل هذا الموقف، ينحصر فى خيار واحد..

خيار (شمشون)..

لذا، فقد انتفض جسده كله، من فرط الانفعال، وتضاعف العرق المتصبب على وجهه، من تأثير الحرارة الشديدة داخل السيارة، وهو يقول، بكل غضب وحزم وصرامة الدنيا :

- فليكن.. ما دمنا سنذهب، فستذهب معنا يا عميل المصريين.

كان يهم بضغط زناد مسدسه بالفعل، دون لمحة واحدة من التردُّد، إلا أن يد (وليد) ارتفعت فى سرعة؛ لتقبض على معصمه، بأصابع من الفولاذ، كما تدرَّب تماما فى أروقة المخابرات المصرية، وهو يقول فى صرامة :

- لست عميلاً للمصريين.

ومع حركته المباغتة، انحرفت فوهة المسدس عن صدغه، وانطلقت رصاصة (حونين) نحو سقفها المصفّح، لترتدّ فى عنف، وتغوص فى مؤخرة عنق (موشى)، الذى أطلق شهقة ألم وذعر، قبل أن يسقط رأسه على عجلة القيادة أمامه، فى نفس اللحظة التى استطرد فيها (وليد)، بكل صرامة الدنيا :

- بل أنا منهم.

كانت مفاجأة عنيفة لرجل (الموساد)، إلا أنه كمحترف، تجاوزها فى سرعة مدهشة، وقبض على عنق (وليد) صائحا:

- فلتكن أوّل من يلقى مصرعه منهم إذن.

لم يكد يتم عبارته، حتى صرخ رجله (كاهان)، فى عصبية أقرب إلى الانهيار :

- لا.. لم أعد أحتمل هذا.

ومع صرخته، دفع باب السيارة المصفّحة، ووثب خارجها، وهو يرفع مدفعه الآلى القصير، و...

وحان دور (رافت)، ليثبت مهاراته وقدراته، التى اكتسبها من تدريبات الصاعقة العنيفة..

فما أن انفتح باب السيارة المصفّحة، حتى انقض عليها كالليث، وانطلقت رصاصات مدفعه تحصد (كاهان)، قبل أن يطلق رصاصة واحدة، فى حين صاح (حونين) من داخل السيارة، وهو يقبض على عنق (وليد) بيمناه، ويحاول دفع يسراه إلى أقصى مداها؛ ليعيد إغلاق الباب الأمامى الأيسر، الذى امتدّت إليه النيران أيضا :

- ماذا فعلت، أيها التعس الغبى ؟!

ولم تكن صيحته حتى قد اكتملت، عندما وثب (رافت) داخل السيارة، عبر حاجز النيران، دون ذرة واحدة من التردُّد أو الخوف، وأدار كعب مدفعه، ليهوى به على رأس (حونين) بكل قوته، دون أن ينطق حرفا واحداً..

وكانت ضربة عنيفة..

عنيفة للغاية..

الا أن (حونين) احتملها بصلابة عجيبة..

وحاول أن يلتقط مسدسه من بين ساقيه..

وأن يُطلق النار..

ولكن (رافت) هوى بكعب مدفعه مرة ثانية..

وثالثة..

و...

وسقط رجل المخابرات الإسرائيلى..

سقط فاقد الوعى، داخل السيارة المصفحة المشتعلة..

وهنا فقط، صاح (رافت)، بلهجة آمرة صارمة :

- هيا.. سيصلون فى أية لحظة.

ومع صيحته، دفع (وليد) جسده إلى المقعد الأمامى، ثم انزلق خلف (رافت)، عبر حاجز النيران، إلى خارج السيارة، وهو يهتف به :

- رباه!.. النيران تشتعل فى ساقك.

صاح به (رافت)، وهو يعدو نحو البنايات المجاورة، متجاهلاً النيران، التى تشتعل بالفعل، فى ساق سرواله :

- أسرع بالله عليك.. أسرع.

استقبلهما (غسان) ورجاله، عند إحدى البنايات، وأسرعوا يعاونون (رافت)، على إطفاء النيران المشتعلة فى ساقه، فى نفس الوقت الذى تعالى فيه دوى أبواق السيارات العسكرية والأمنية الإسرائيلية، التى تقترب من المكان، فرفع (وليد) عينيه إلى (غسان)، قائلاً :

- لديكم خطة.. أليس كذلك ؟!

نهض (رافت)، ليجيبه بمنتهى الحزم، على الرغم من آلام ساقه :

- بكل تأكيد.

ومرة أخرى، انطلق الكل يعدو مبتعداً، وسيارات الإسرائيليين تقترب..

وتقترب..

وتقترب..

وعندما وصلت إلى المكان، كانت نيران السيارة المصفحة قد خبت أو كادت، وإن لم تمتد داخل جسمها المصفح القوى..

وكان رجل المخابرات الإسرائيلى (حونين) هناك داخلها، يستعيد وعيه فى صعوبة، والعرق الغزير يغمر جسده كله، من فرط الحرارة والمرارة، وحوله اثنان من رجاله، لقيا مصرعهما فى عملية دقيقة قوية، استغرقت دقيقتين فحسب..

أما (رافت)، و(وليد)، و(غسان) ورجاله، فقد اختفوا من المنطقة كلها.. اختفوا تماماً.

* * *

٨- كش.. مات..

احتقن وجه مدير المخابرات الإسرائيلية فى شدة، وبدا أشبه بصورة مجسَّمة للغضب والثورة، وهو يقول لضابطه (حونين) فى حدة :

- مصيبة.. كارثة.. المصريون خدعونا وسخروا منا، على نحو لم يحدث من قبل، وربما فى تاريخنا كله.. لقد أداروا العملية ببراعة مدهشة، تدفعنا حتماً إلى إعادة تقييم أدائهم، وتغيير نظرتنا إليهم، فى المرحلة القادمة.

غمغم (حونين) فى توتر امتزج بمرارة بلا حدود :

- هذا صحيح.. ينبغى لنا أن...

قاطعه المدير فى ثورة :

- أمرك أنت يختلف.

حان دور (حونين)، ليحتقن وجهه بشدة، ومديره يتابع فى غضب :

- لقد تسببت فى كارثة فادحة، بإهمالك فى الحفاظ على عميل بالغ الخطورة، بعد أن أوقعناه فى قبضتنا بالفعل، وتراخيت فى متابعة مشتبه فيهما، وفى استصدار أمر بمنعهما من المغادرة، أو حتى بالإبلاغ عن أية محاولة منهما لذلك، مما أتاح لهما الخروج من أرضنا، والسخرية منا، والإفلات من قبضتنا.

غمغم (حونين) فى عصبية :

- العملية لم تنته بعد.

صاح المدير فى غضب هادر :

- بل انتهت أيها الضابط.. لقد فقدنا العميل، وفقدنا الوسيطين، و...

قال (حونين)، مقاطعاً مديره فى صرامة، لا تتفق مع النظم العسكرية الحازمة :

- العميل لم يغادر (إسرائيل) بعد.

ارتفع حاجبا المدير، فى دهشة مستنكرة، فتابع (حونين) فى توتر :

- لقد تداركت الأمر فى اللحظة الأخيرة، وأصدرت الأوامر بتشديد الحراسة، والمراقبة، على كل حدود (إسرائيل) بلا استثناء، وتأكَّدت، بما لا يدع مجالا للشك، أن أحداً لم ينجح فى الخروج بذلك العميل، خارج حدود (إسرائيل).

قال المدير فى عصبية :

- وهل تعتقد أن هذا يكفى ؟!

اجابه بمنتهى الحزم :

- إنه يكفينى على الأقل.

رمقه المدير بنظرة طويلة، قبل أن يعود إلى ما خلف مكتبه، قائلاً :

- وهل تعتقد أنه يمكنك أن تحصل على فرصة أخرى؟!.. رئيس الوزراء غاضب للغاية مما حدث، ويطالب بمحاكمتك عسكريا، وتوجيه تهمة الإهمال والتقصير فى أمن (إسرائيل) إليك، فكيف أطلب منه أن يمنحك فرصة ثانية. بعد كل هذا؟!

قال (حونين) فى صرامة :

- ليس أمامه سوى هذا.

هتف المدير فى استنكار :

- ماذا ؟!

أشار (حونين) إلى صدره، متابعا فى حزم :

- ذكره بقواعد العمل هنا يا سيّدى.. أنا أكثر من يعرف هذه العملية، وأقدر شخص على مطاردة العميل، داخل حدود (إسرائيل)، وإعادته إلى هنا.. انه أمن (إسرائيل) يا سيّدى.. اضغط على هذا الزر. وستحصل دوما على ما تريد.

ولم يجب مدير المخابرات الإسرائيلى..

فقد نجح أسلوب (حونين)، فى أن يدفعه إلى التفكير فى الأمر..

وبمنتهى الجدية..

* * *

"لقد ربحت يا بطل.."...

نطقها اللواء فى حرارة، فى حديقة الفيلا الصغيرة، وهو يجلس أمام العميد. قبل أن يتابع فى حماس :

- (هناء) و(شوكت) عادا من (باريس) إلى هنا سالمين، و(رأفت) أرسل برقية لاسلكية شفرية، أبلغنا فيها أن (وليد) فى أمان، تحت حماية مجموعة الاتصال الفلسطينية.

ثم ربّت على كتف العميد بابتسامة كبيرة، متابعا :

- الآن يمكنك أن تنهى المباراة بزهو أيها العميد، وأن تقولها بكل الثقة: كش ملك.. مات.

ابتسم العميد ابتسامة هادئة، وهو يقول :

- ليس بعد يا سيادة اللواء.. ليس بعد.

سأله اللواء فى دهشة :

- ولماذا ؟!

مال العميد نحوه، قائلا :

- لقد حررنا (وليد) من سجنه الصغير. ولكنه ما زال أسير السجن الأكبر.

وانعقد حاجباه، فى مقت واضح، وهو يضيف :

- (إسرائيل).

تنهد اللواء، قائلاً :

- إنها مسألة وقت فحسب... مجموعة الاتصال الفلسطينية ستحميه بأرواحها، مهما طال الزمن، وإن عاجلاً أو آجلاً، سيتوقف الإسرائيليون عن البحث عنه، وعندئذ..

قاطعه العميد فى حزم :

- لست أعتقد أن الأمور ستسير على هذا النحو.

سأله اللواء فى اهتمام :

- ولم لا ؟!

أشار العميد إلى رقعة الشطرنج، وكأنما يستلهم منها أفكاره، قائلاً :

- ضابطهم يشعر الآن بالهزيمة، ومرارتها ستدفعه لبذل الجهد المضاعف، وتجنيد كافة الإمكانيات؛ للعثور على العميل الذى فقده، ولن يهدأ له بال، حتى يوقع به.. مهما كان الثمن.

تراجع اللواء فى مقعده، متسائلاً فى قلق :

- ماذا تقترح إذن ؟!

مال العميد نحوه أكثر، وهو يجيب فى حزم :

- عملية أخرى.

انعقد حاجبا اللواء فى شدة، فتابع العميد فى حزم أكثر :

- وعاجلة.

ثم التقط نفساً عميقاً، وتراجع فى مقعده المتحرك، مضيفاً :

- عملية نستعيد بها (وليد) و (رأفت) معاً.

صمت اللواء طويلاً هذه المرة، وهو يتطلع إليه، وينقل بصره بين الحين والآخر إلى رقعة الشطرنج، قبل أن يقول:

- لن يكون هذا سهلاً.

أجابه العميد فى سرعة :

- ولن يكون مستحيلاً أيضاً.

وارتسمت ابتسامة حازمة على شفتيه، وهو يضيف :

- إننا متخصصون.

اتسعت ابتسامة اللواء، وهو ينهض ويربت على كتفه، قائلاً:

- بالتأكيد.

قالها، وغادر حديقة الفيلا، تاركاً العميد خلفه، يجلس صامتاً، هادئاً، وعقله يستعيد كل تفاصيل عمليته الأولى، ويرتب أحداثها ويحللها؛ لاستخلاص كل النتائج الممكنة منها، وهو يتطلع إلى رقعة الشطرنج أمامه،

ويمهّد لعملية جديدة..

ولمباراة جديدة..

مباراة بيادقها من نوع خاص للغاية، يتفق وهؤلاء الذين يشرف بقيادتهم..

المتخصصون.

* * *

المتخصصون

1

معركة العقول

د. نبيل فاروق

صراع العقول، الذى يفوق بشراسته ومتعته، أقوى صراعات الجسد...

مهمة فى قلب إسرائيل، يقوم بها فريق من المقاتلين الشبان، تحت قيادة خبير...

مهمة مستحيلة، ضد خصم شديد الدهاء، يقودها رجل من طراز خاص جداً...

وفى ظروف أشبه بالخيال...

هذا لأنه لاعب يتمتع بسمة فريدة ...

سمة جعلته يتفوق دوماً...

وجعلتنا نطرح السؤال: ترى هل يربح المتخصصون المعركة؟!...

معركة العقول.

احصل على نسختك من: www.mctaba.com

الناشران: دار ليلى للنشر و الإعلان - دايموند بوك

الثمن في مصر

3 جنيهات مصرية